
حجر دافئ
رضوى عاشور


حَجَرٌ
دَافِئ



د. رضوى عاشور



دار المستقبل العربي

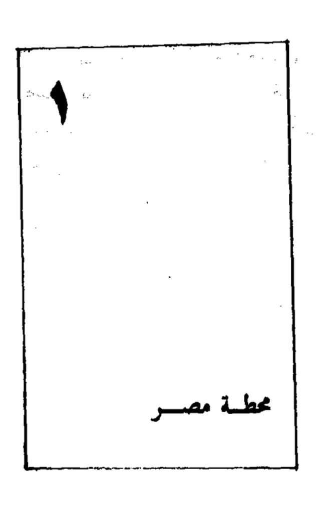
تصميم الغلاف

للفنان : محمد بغدادى

الطبعة الأولى ١٩٨٥

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهرة



١

محطـة مصـر

وقفن أمام البوابة الحديدية ومعهن الحقيبة الكبيرة التى اودعت فيها بشرى ملابسها وسلة الخوص التى ملأتها لها أمها بالقرص والمنين . وكان الرجال قد سبقوا الى الشارع لايقاف ثلاث سيارات أجرة .

توقفت السيارات أمام البيت ، ركبوا ، طرقعت الأبواب وعلا صوت المحركات . انطلقت السيارات عدة أمتار فى نفس الشارع انحرفت بعدها يسارا ثم يمينا الى شارع القصر العينى وواصلت فى خط مستقيم حتى ميدان التحرير . تجاوزت مبنى الجامعة الأمريكية عن يمينهم وبنايتى الجامعة العربية والمتحف المصرى وفندق هيلتون الواقع بينهما عن يسارهم . وكان المرور فى شارع رمسيس بعد ذلك منسابا فلم تستغرقهم الطريق وقتا طويلا .

عندما وصلوا الميدان لم تنحرف بهم السيارات الى اليسار مباشرة ليعبروا الى محطة القطارات ولكنها دارت من خلف المبنى العتيق الذى تعلوه لافتة تعلن عن جمعية دينية قبطية ودخلت الى شارع جانبى يتقاطع مع شارع رمسيس ثم توقفت عند اشارة المرور تنتظر الضوء الأخضر . وكان مبنى المحطة يواجههم الآن مباشرة بطرازه المعمارى الاسلامى ونوافذه ذات الاقواس المؤطرة بمساحات من الطلاء الأزرق وتمثال رمسيس يبدو جانبيا : غطاء الرأس الفرعونى ، تاج الوادى الموحد ، الهامة الملكية ، المنكب العريض العارى ، الخصر المؤتزر ، الساق تواكب الساعد فى حركة هندسية ، القدم الحجرى العريض .

أضاءت الاشارة الخضراء فعبروا فى المساحة الفاصلة بين ظهر التمثال المستند الى عمود حجرى عليه نقش كتابة هيروغليفية والحائط الغربى لمحطة القطارات .

توقفت السيارات ونزلوا . تقدمهم عبد التواب وهو يطلب منهم ان ينتظروه عند بائع الجرائد تحت الساعة حتى يتأكد من موعد قيام القطار ورقم رصيف الركوب ودخل من باب المحطة فتبعوه . انحرف يسارا واتجهوا هم الى حيث اشار عليهم .

كانت المحطة تموج بالحركة والأصوات . أصوات المسافرين والمودعين والقادمين والمستقبلين والباعة والشيالين ومحركات القطارات وصفافيرها والمعلنين عبر مكبرات الصوت عن مواعيد القيام والوصول .

وقفوا ينتظرون بالقرب من الحامل الخشبى للجرائد والمجلات . وشاهدوا النسوة الريفيات يغادرن أرصفة الوصول الى العاصمة . يلبسن الأسود التقليدى وينتعلن أحذية البلاستيك المتربة ويهرولن حاملات على رؤوسهن سلالا كبيرة أو

حللا نحاسية عتيقة ، يركض من ورائهن أطفالهن .

عرض عليهم صبى يحمل صندوقا خشبيا داكنا أن يمسح لهم أحذيتهم . مر بهم رجل يقود أسرته كقطيع صغير ثم مجموعة من الجنود يحملون حقائبهم القديمة ، صغار السن يلبسون الكاكى وتكشف أعناقهم ووجوهم المشربة بالحمرة الداكنة انهم يقضون اوقاتا طويلة تحت شمس محرقة .

اتى عبد التواب مهرولا واخبرهم ان عليهم ان يسرعوا لأن الرصيف فى الناحية الأخرى .

حمل على حقيبة اخته وسيد السلة . خلفهما سارت بشرى بين أمها وسلمى تبعتهن منيرة وابنتاها .

شقوا لأنفسهم طريقا وسط الزحام . مروا بمسافرين على عجلة مثلهم او متمهلين او واقفين فى انتظار شىء أو آخر . كادوا يتعثرون فى الحقائب والسلال والقفف والمقاطف والصناديق الكرتونية والنساء اللائى يفترشن مع صغارهن وصررهن الأرض . وأخيرا وقفوا عند سيدة تغطى شعرها بمنديل قطنى منقوش بجوارها حقيبة كبيرة مربوطة بحبل عوضا عن قفلها المكسور واخرى اصغر فُصِّل لها غلاف من الدمور لحفظها .

كان القطار واقفا على القضبان وموازيا للرصيف مفتوح الأبواب للمسافرين الذين بدأوا يركبون . سلمت بشرى على أمها اولا واحتضنتها ثم احتضنت سلمى . وراحت بعد ذلك تسلم على الآخرين وتقبلهم . ودعتهم جميعا الا على وسيد اللذين صحباها بالحقيبة والسلة الى داخل القطار . ثم سلمت عليهما ونزلا .

لم تجلس بشرى فى مقعدها بل وقفت تتحدث اليهم من نافذة القطار . وحين دق الجرس واغلقت الابواب مدت يدها وامسكت بيد امها ثم مالت بجذعها كثيرا ولثمتها ، فى هدوء .

وبدأ القطار يتحرك ..

شمس تفكر فى الزمن

□ □ تساءلت شمس وهى ترقد فى فراشها ان كانت السنوات تمر ببطء ام فى غمضة عين ، فكأنه الأمس حين كانت بشرى رضيعة فى الأقمطة البيضاء تحرك شفتيها بحثا عن ثديها ، تغفو وهى ترضع فتضطر لايقاظها بحك انفها بأطراف أصابعها .

بل كأنه الامس حين جاءت الى البيت الذى كان جديدا ولامعا ككل الاشياء الاخرى ،البوابة الحديدية الخضراء ، الجدران المطلية حديثا ، الأحواض البيضاء ، الصنابير المعدنية ، الأوانى ، الأثاث ، الحقائب التى ضمت ملابسهما . حتى هما كانا جديدين ، هى بأعوامها الثمانية عشر ، وهو بشعره الأسود وشاربه الكث وبريق عينيه وضحكته الصاخبة .

وفى نفس الاسبوع سكن البيت عروسان آخران فقال أهل الحى : « بيت العرسان » ثم حملت هى وجارتها فكان الناس حين تسيران معا منتفختى البطن وئيدتى الخطى يرمقونهما بنظرة خبيثة ويبتسمون . فى الأول ولدت هى بشرى ثم وضعت قدرية سلمى . وقالت أم عبد التواب التى كانت تلبس ثوبا

أسود وتغطى شعرها بطرحة سوداء حين رأت حفيدتها : « أى بخت ، بنتان تولدان فى بيت واحد فى نفس الشهر ! » كانت المرأة كالغراب فلم تطق شمس وجودها . حملت سلمى فدر ثدياها حتى ابتل ثوبها ، أرضعتها .

فى البداية يكونون كقطع العجين الدافئة فى اليدين ثم يكبرون . كأنه الأمس حين كانت تحكم اغلاق النافذة والباب وتخلع عن على ملابسه الصغيرة وتحميه بالماء الدافىء . تجلسه فى الحوض وتصبّنه بيد وباليد الأخرى تمسك به حتى لاينزلق ثم تشطفه بالماء وتجففه وتدعك له صدره وظهره وأطرافه بالزيت . والآن ان نسى على المنشفة يطل برأسه من باب الحمام يطلبها وحين تحملها اليه يبتعد فلا ترى سوى يد تمتد .

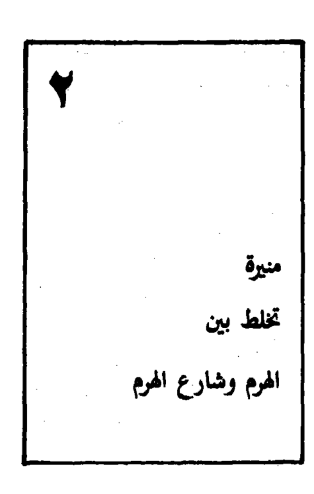
قامت شمس من السرير وخرجت الى الشرفة ، بنفسج السحر يمتزج بالأبيض وفى الأفق خيوط برتقالية . لابد أن بشرى الآن مستغرقة فى النوم فى مكانها الجديد . بشرى تشبهها كثيرا ، هكذا يقول الناس . وسلمى عذبة وهشة ، تشبه المرحومة قدرية . تنهدت شمس ، فى لحظة الموت يبدو الحزن كجبل لايتزحزح ، ثم يتزحزح .

نظرت الى ساعتها ، كانت تقترب من السادسة . دخلت الحمام وغسلت وجهها ثم اشعلت الموقد فى المطبخ ووقفت امامه تنتظر غليان الماء .

هل يمر الزمن بسرعة أم ببطء ؟ فى البدء كان للأشياء رونق كسلة ذات نقوش زاهية وملونة ، سلة جديدة يحملها الانسان تبرجا ثم يأتى الأطفال والقلق ، وحجر يتعثر به المرء فى الطريق ، وحكاية يخفيها فى قاع السلة حتى لايلمحها كل يوم ، والمقرىء فى ليلة المأتم ثم يذهب . ثقيلة أم خفيفة تلك السلة ؟ وهؤلاء

الأولاد والبنات ، كم مرة اشعلت موقدا وسخنت ماء وبلل العرق شعرها وهى تقف وسط بخار الحمام تغسل لهم صدورهم وظهورهم وتوبخهم على اتساخ آذانهم ، كم مرة كاد ينخلع قلبها على تأخر أحدهم ؟ من يقول ماما شمس ومن يقول خالتى شمس ، يخرجون الى مدارسهم فى الصباح وفى المساء دائما يرجعون ويملأون البيت فيصير كالشجرة التى تحت نافذتها ساعة الغسق مثقلة بالعصافير فى أعشاشها .
سلة ثقيلة ؟ وان تكن ! .

□□□



٢

منيرة تخلط بين الهرم وشارع الهرم

لو أن الرجل يكف عن اصدار هذا الصوت الذى ينخر كسلك اذنيها . ولكنه يواصل بدأب يحسد عليه . وتستمر يد سلمى فى تسويد الصفحات البيضاء بخطوطها وأشكال لاتشغلها لأنها تفكر ان خارج قاعة الدرس شمسا برتقالية وهواء يهز السعف الأخضر وجذوع النخل السامقة . ثم ترن فى القاعة تغريدة طائر يفاجىء الصمت كما صوت المؤذن فى الفجر فتحمل أوراقها وتطلب من الاستاذ ان يسمح لها بالخروج « اننى متعبة » تقول . وما ان تغلق الباب خلفها حتى تقفز كالجندب وتهبط الدرج ركضا ثم تتجه الى حيث اوقفت دراجتها تضع كلتا يديها على المقود وتجرها باتجاه البوابة الحديدية والنصب التذكارى لشهداء الجامعة . تدق الساعة دقتين .

الرابعة والنصف . تتجه يسارا وتسير بمحاذاة النخل العالى وسور الجامعة . تنحرف يسارا مرة أخرى مع السور فتصير أشجار حديقة الأورمان العتيقة خلف ظهرها وبرج الساعة وقبة الجامعة ومبانيها الى يسارها . ثم تقفز الى دراجتها وتتجه غربا .

الشارع الممتد مزدحم بالسيارات الملونة وسيارات الأجرة السوداء والعربات الخشبية والشاحنات والأوتوبيسات المحشوة بالركاب والمشاة من طلاب الحرم وسكان المدينة الجامعية والمارة . وقفت عند اشارة المرور تنتظر انتهاء سيل السيارات القادم من « بين السرايات » ولاحظت ان ركاب الاوتوبيس الذى أمامها انضغطوا فيه فاكتسبت وجوههم واجسامهم المتلاصقة والمتداخلة اشكالا غريبة . ربتت على مقود دراجتها فى امتنان وابتسمت فابتسم لها شاب يقف بسيارته عند اشارة المرور مثلها فسبّته . أضاء النور الأخضر ، وضعت قدميها على البدالات وواصلت طريقها .

قبل التقاطـــع الكبير والمزلقان يبدأ ازدحام اضافى الباعة والشارون يحتلون الرصيف وجزءا من الشارع . عربات الكشرى تحمل كل منها هرما من الأرز المخلوط بالعدس تجاوره المكرونة . عربات برتقال ويوسفى صُفّت عليها الثمار بالواحدة فى اشكال هرمية . ملابس داخلية وجوارب وشنط جلدية متعددة الألوان معلقة على حبال مثبتة بأكشاك خشبية وحوامل من جريد وضعت عليها أرغفة خبز او جرائد ومجلات للبيع .

تتجاوز سلمى ذلك كله كما تتجاوز سياج قسم الشرطة المطلى بلون احمر فسفورى صارخ تزينه لافتات ضخمة تعلن ان الشرطة فى خدمة الشعب . وتصل الى الشرطى العتيق الواقف فى الميدان ، تعبر شريط السكة الحديد ثم تنحرف يمينا . وعندما تجد المراجيح التى لايشغّلها اصحابها الا فى المواسم والأعياد تدخل

يسارا وتعرف انها على وشك الوصول ، ثم تصل .

وتحتفى عيناها بالمدى المفتوح . أخضر زراعى ونخيل والاهرام فى البعد . ينحسر ضوضاء المدينة وتملأ المكان زقزقة العصافير الكثيرة التى يؤكد تغريدها سكون المكان تماما كما يؤكده الصفير المباغت والمتقطع لقطار عابر لاتراه .

حين جاءت للمرة الأولى كانت قبلها تجلس فى نفس قاعة الدرس أمام ذات المحاضر . وكان مايقوله باهتا تماما كصوته الخافت وايقاعه الرتيب . وبدالها وهى تغالب التثاؤب أن أمنيتها فى تلك اللحظة ان تنعم بالنوم فى فراشها ثم باغتتها تغريدة الطائر الذى لم تعرف نوعه وتساءلت ان كان كروانا . صوت واحد رن فى المكان فترك روحها ، عقلها ، حواسها الخمس ، مستيقظة ومقبلة . وحاولت وهى تغادر القاعة أن تحدد مصدر الصوت ثم تتبعت الطريق الى النخيل وصارت تأتى لتفترش الأرض تتأمل المكان وأحيانا تمسك قلما وتكتب .

وفى مرة كتبت :

هل هذا بيتى .. أم انه الجسد ؟
أبواب هذه .. أم حواس ؟

راقصة لها تاج — مروحة من سعف أخضر
وأقراط من عنبر يُشتهى
يرقبها قرص برتقالى شبق
وأشكال هرمية كمثلثات صغيرة
متلاصقة على صفحة عريضة

لكراس رسم مدرسي
مثلثات أم تيجان ؟

تعالوا جميعا ،
تعالى أيتها النخلة ، ياقرص الشمس تعال
ويا لأهـرام
تفضلـوا
ها أبوابي مشرعة ..
تفضلوا ... تفضلوا .

ثم تفرض ضرورة الذهاب نفسها فتطوى الورقة وافكارها وتركب دراجتها وبروحها شيء يريد ان يتعجل العجلة ويطير ثم تدخل الزحام وتصبح جزءا من حركة المرور البطيء ، سيل السيارات والشاحنات والاضواء الحمراء دائما . وحين تصل الجامعة تسير بمحاذاة السور ثم تنحرف معه يمينا ثم يسارا الى الجسر . تطالعها الثنيات الحجرية لثوب فلاحة مختار ومؤخرة ابى الهول الجرانيتية وتتمنى لو كانت آتية من الناحية الأخرى لترى التمثال كاملا وهو يتألق فى الليل تحت اضواء الكشافات المحيطة به . ولكنها تعبر النهر الى جزيرة المنيل ثم المجرى المائى الصغير الذى يفصل حد الجزيرة الشرقى عن الضفة الأخرى وتصل الى شارع القصر العينى ومنه أخيرا الى البيت .

تركت الدراجة فى مدخل البيت ثم صعدت الدرج الى الطابق الثانى نظرت فى ساعتها فوجدتها تقترب من التاسعة « سيوبخوننى » قالت ودقت الجرس .

فتحت لها زوجة أبيها وكان وجهها ممتقعا وقالت أن أباها ينتظرها منذ ساعتين وأنه أقسم ألا تمر الليلة على خير : ثم بعتاب :

ــ أقلقتنى ، أين كنت ،

وللحظة حارت فى الاجابة :

ــ عند الهرم !

قالتها بشىء من حماس لأنها وجدت الرد . فامتقع وجه منيسرة أكثر وقالت مستنكرة بصوت هامس :

شارع الهرم ! كنت فى ملهى فى شارع الهرم ؟!

داهمت سلمى رغبة حادة فى الضحك حاولت مغالبتها ولاحظت زوجة أبيها ذلك .

ــ هل تسخرين منى ؟!

قالتها باستنكار ولما لم تجب ازداد غضبها وعلا صوتها وجاء عبد التواب وهوى بكفه على وجه ابنته . وكانت الصفعة هى ذروة الموقف ونهايته .

زواج الأولاد فرح

□ □ فى يومين متتاليين سقطت من يد سلمى ثلاثة أكواب زجاجية انكسر منها اثنان . وعلقت شمس على الأمر قائلة « سلمى مشغولة بالعريس ! » وابتسمت ولكنها كانت تعرف ان البنت قلقه .

وكانت امينة ومديحة تجلسان أمامها على الأريكة وهى تثنى ذيل ثوب جديد حاكته لسلمى وتحكى لهما ماقالته أم العريس لها ولمنيرة من أنها حلمت بأنها تشترى لابنها خاتما ذهبيا فأيقنت بأن الله كتب له الزواج . استعرضت بنات

العائلة واحدة واحدة ، هذه قصيرة ، وتلك تلبس نظارات ، والثالثة تضحك بصوت عال . « بعد سبعة ايام » قالت ام العريس « ، هدانى عقلى لابنة عبد التواب ، أمها رحمها الله أصيلة وست البنات ، وعبد التواب محترم وزميل المرحوم . صحيح اننى لم اكن رأيت سلمى منذ كانت فى السادسة ولكنى كنت اذكر جمالها وعندما أتيت لم يخب ظنى فقد وجدتها كالقمر وانشرح صدرى وتخيلتها فى ثوب الزفاف مع سعيد ابنى تقصره بشبرين كأنها فُصّلت له » .

وقالت مديحة بلهجة ساخرة :

ــ وكأن اختنا بدلة او حذاء .. تفصيل !

فنهرتها شمس وقالت لها ان تفكر فى الكلام قبل ان تتفوه به وقامت الى المطبخ لتصنع شايا . أمر الاولاد عجيب يعملون من الحبة قبة ، بشرى تقول انه من الخطأ قبول عريس لايعرف عنه سوى مايقوله الآخرون . فكيف نعرفه اذن ؟! وموقف على أعجب فقد خاطب سلمى بحدة وأعلن انه ضد الموضوع وترك البيت ساخطا وخرج . سألنا عن العريس فشكروا فيه . ورأته سلمى ثلاث مرات فلم تجد مايعيب ، فما الذى يمنع ؟ .

وفى الليلة التى سمع فيها سكان العمارات المجاورة الزغاريد تتعالى من البيت وألبس سعيد سلمى الخاتم الذهبى فى بنصرها الأيمن واسورة ثمينة من الذهب فى معصمها ، فى تلك الليلة استعصى النوم على شمس . كبرت البنات وهاهى سلمى تفتح الباب فى الأول ثم تتبعها الأخريات . هل يفتحن الباب ليذهبن أم لياتين ؟ لا لا انهم يأتين وسيمتلىء البيت بهن وبأزواجهن وصغارهن وسيداعب الفرح قلبها كما يداعبه ذلك اللون الاصفر الناعم للكتاكيت التى تربيها حين تنقلها كل صباح فى علبة الكرتون الى الشرفة الغارقة فى الشمس . زواج الأولاد فرح كررت شمس لنفسها . ولكن على كان غاضبا ، لماذا كان غاضبا الى هذا الحد ؟

فكرت فى العريس الذى لم ينفتح له قلبها ، وكيف ينفتح وهى بعد لاتعرفه ؟!
سألوا ولم يقل عنه أحد مايسيء . غدا تعتاد عليه فيدخل البيت كأنه واحد من
أبنائها .. وإن أشقى البنت ؟ قامت من السرير لتشرب وهى تقول لنفسها
« الزواج كالصندوق ولكل فى صندوقه نصيب » . شربت وعادت الى السرير .

قرب الفجر غفت فرأت فى المنام أم سلمى ودار بينهما حديث هامس
طويل ، حاولت فى الصباح ان تتذكر شيئا منه ولم تفلح . قضت النهار وطيف
المرحومة قدرية ماثلا أمام عينيها وفى حلقها غصة وبها رغبة فى البكاء ولكنها لم تقل
لأحد شيئا عن ذلك .

ثم انشغل الجميع فى اعداد سلمى للزواج والبيت لسلمى . واحتل الحديث
عن السوق وما وجدوه ومالم يجدوه المساحة الاكبر من الاحاديث المسائية فى
الشقتين . تنزل شمس مع سلمى لاختيار الاقمشة ، أقمشة للثياب ، وأقمشة
لأغطية السرير ، وأقمشة للمفارش . وتعودان الى البيت محملتين بما اشترتاه . وفى
المساء تنهمك شمس فى قص ثوب جديد للعروس ، أو تطريز وردة بالخيوط الزرقاء
على النسيج الحريرى الأبيض لقميص نوم حاكته لها . وقد تترك عملها لتشاهد
الأكواب والأطباق التى اشترتها سلمى مع زوجة أبيها ثم تساعد فى اعادتها بحرص
الى العلب الكرتونية المحشوة بالقش أو قد تواصل العمل وهى تدلى برأيها فى النقاش
الجارى حول تكاليف الجهاز وكيفية الاقتصاد فى المشتريات .

وعلى مدى عام كامل كانت سلمى ، أثواب سلمى ، عريس سلمى ،
جهاز سلمى ، بيت سلمى هى موضع الاهتمام . وشمس ترى البنت متألقة تطير
هنا وهناك كفراشة صغيرة منبهرة بالضوء المسلط عليها .

وأخيرا حل يوم العرس وجاء عمال الكهرباء ومدوا على واجهة البيت

أسلاكا بها مصابيح صفراء وخضراء وبنفسجية وزرقاء وحمراء .. فى الأيام السابقة كان كل شىء قد أعد . جاءت عمات سلمى من القرية وقمن مع منيرة وشمس والبنات باعداد البيت . نظفن السقف والزوايا بفرشاة خشنة لها يد خشبية طويلة ، نفضن الابسطة بمضرب من الخيزران ، غسلن النوافذ وسواترها الخشبية بالماء والصابون ، لمعن الزجاج بأوراق الجرائد القديمة ، حككن الأرض بفرش السلك القوية ، كلفن الرجال بشراء مايلزم من زجاجات الشربات وعلب الحلوى وبتأجير مايكفى من كراسى للمدعوين . وأعدت شمس قطعة عجين من السكر والليمون وأزالت لسلمى الشعر عن ساقيها وذراعيها وتحت إبطيها وأسفل بطنها . وساد البيت ضوضاء وهرج احتفالى : الكل يصعد ويهبط ويدخل ويخرج ويروح ويجىء ، الكبار يعلو صوتهم على الصغار والصغار متوقدون يركضون هنا وهناك بضرورة وبغير ضرورة .

وحين تعالت الزغاريد فى البيت عرفت شمس ان العريس وأعمامه والمأذون وصلوا وملأها الارتياح لأن كل شىء حاضر ومعد ، سلمى أكملت زينتها وهى الآن تقف أمام المصور الذى يلتقط لها صورا مع عماتها وزوجة أبيها والبنات . ينادين على شمس فتقف بينهن ، يضغط المصور على زر آلته السوداء ، يلتمع ضوء ثم ينفرطن وهن يضحكن .

وتبدو سلمى جميلة كالعرائس فى صور المجلات الملونة . تلبس الابيض الطويل الذى حاكته لها شمس . وتجملت على غير عادتها بالمساحيق وزينت العينين بالكحل ، والجفنين بظل أخضر خفيف والرموش بمحلول تجميل أسود والشفتين بالأحمر وكذا الأظافر . وشعرها الكستنائى الذى اعتادت ربطه خلف أذنيها بشريط دقيق محلول يلامس الكتفين ووضعت على رأسها اكليلا من الورود الصناعية الصغيرة البيضاء ينزل منه خمار ابيض شفاف يصل الى منتصف

ظهرها . « إنها فعلاً جميلة » قال شمس وفكرت فى المرحومة قدرية التى حُرمت من رؤية ابنتها وهى عروس . تنهدت وملأت الدموع عينيها . « حكمة ربنا » .

أقبلت احدى الصغيرات مندفعة كقذيفة تكرر « انهم وصلوا » وقبل ان تستوضحها شمس من هم الذين وصلوا كان الرجال يملأون حجرة النوم ، أبو سلمى وأعمامها وأخوالها جاءوا يسألونها من توكل قالت انها توكل اباها الذى ضحك فخورا بابنته وقال : « لايصح مادام عمك الكبير حاضرا » فسألها عمها ان كانت تقبل سعيدا زوجا فقالت انها تقبل .. تعالت الزغاريد واقبلت العمات على العروس يحتضنها ويقبلنها واعترضت منيرة قائلة ان ذلك سيفسد زينة البنت . ورأت شمس ان العمات تضايقن للملاحظة فقالت مازحة :

ــ أما أنا فسأطبع على وجه سلمى اثنتين وعشرين قبلة ، واحدة عن كل سنة أحببتها فيها .

فقالت مديحة وهى تضحك :

ــ هاتى يابشرى الختامة لكى تطبع أمك علامات المحبة .

وضحكن جميعا . وسألت بشرى عن على فقالت شمس انه يجلس مع الرجال .

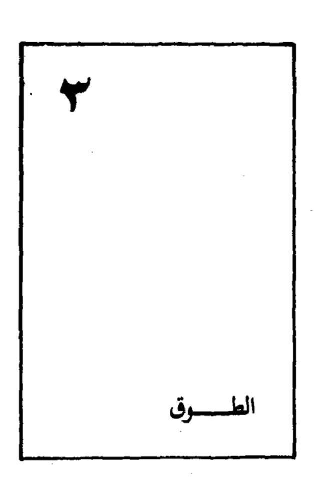
ثم جاء العريس وقبل العروس على وجنتيها ، ضحكت البنات ، وابتسمت شمس وشعرت بالدم يصعد الى رأسها كأن القبلة طبعت على وجنتيها هى ، وتهامست العمات ، وأخذ العريس عروسه وسط الزغاريد الى الطابق الثانى حيث شقة عبد التواب ومنيرة وحيث ينتظر المدعوون والمقعدان الأخضران الكبيران اللذان استؤجرا خصيصا للمناسبة .

أوغل الليل واعتمت نوافذ العمارات المجاورة وبقى البيت مضاء بعقود

المصابيح الملونة ينبعث منه ضجيج العرس وغناء النسوة المتقطع على ايقاع طبلة بلدية ، ثم انتقلت الضجة الى الشارع وعلت الزغاريد وطرقعت أبواب السيارات واكتظ مدخل البيت بالمدعوين وانطلقت سيارة بالعروسين الى بيتهما .

وفى تلك الليلة ايضا استعصى النوم على شمس . كانت مرهقة بفعل جهد الأيام السابقة ، يؤلمها ظهرها وقدماها . ثم ان رؤيتها لسلمى تغادر البيت كان قاسيا . كانت فى ثوب الزفاف الابيض تُفرح القلب ، ولكنها ذهبت . مالت شمس على العريس وهمست فى أذنه « سلمى ابنتى ، أرضعتها وربيتها ، ماتت أمها ، صحيح ، ولكنها ابنتى .. لن اوصيك ! » . ثم احتضنت سلمى وتركت الجميع يقفون بباب العمارة ودخلت ، كان ذلك اكثر مما تحتمل . اليوم ذهبت سلمى وغدا تلحق بها بشرى ثم امينة ومديحة والأولاد ايضا . هل صحيح يأتون أم انهم كالأفراخ حين تقوى اجنحتها تطير فتضم هى جناحها على لاشىء ؟ قدماها تؤلمانها وفى ظهرها برودة ، تحكم الغطاء حول نفسها . سألتها سلمى عن على فخجلت ولم تستطع ان تخبرها بأنه رفض حضور العرس . مااللذى اصاب هذا الولد .. جُن ؟ هل يريدها لنفسه ؟ باغتها السؤال ، كلام فارغ ! هذا هو الوسواس الخناس بعينه . غير صحيح وغير ممكن ! انه اخوها أرضعتها كما ارضعته فكيف ؟! كل مافى الامر انه طيب القلب يصعب عليه خروجها من البيت وهو لايعرف العريس ، انه قلق ، مثل بشرى ، هى ايضا كان وجهها شاحبا بعض الشىء ، انه قلق ، كررت ، هذا كل مافى الامر . وان كان يريدها ؟!

□□□



٣

الطــــوق

من يطرق الباب هكذا ؟ تركت شمس الصحون التى كانت تغسلها مغطاة برغوة الصابون وشطفت يديها وأسرعت وهى تجففها لفتح الباب . كانت منيرة ممتقعة الوجه .

— خيرا ؟

— سيد عاد من الجامعة ويقول ان العسكر يطوقونها ولا يسمحون لأحد بالدخول وسمع ان الطلبة الذين كانوا بالداخل اعتقلوا .

— يامصيبتى وأين سيد ؟

سألت شمس ولكنها كانت تفكر فى على .

— ذهب يخبر أصدقاءه وقد أكدت عليه ألا يقترب من الجامعة حتى لايمسكوه !

أتت شمس بجوربها وفردتى حذائها وشرعت فى ارتدائهما .

سألتها منيرة :

— ماذا ستفعلين ؟

على الأقل أحاول معرفة ماذا حدث واستفسر عن مكان الأولاد .

— هل آتى معك ؟

— لا داعى .

قالتها شمس وهى تهرول الى الشارع وتفكر ان على يزج بنفسه فى المشاكل ، هو طيب القلب صحيح ولكنه مندفع وحاد الطبع ...لماذا يمسكون بهم ؟ سترك يارب ! كانت تتصبب عرقا رغم برودة يناير . مسحت وجهها بالمنديل وهى تتابع الطريق من نافذة الأوتوبيس حتى لاتفوتها محطة الجامعة .

عبر الاتوبيس كوبرى الجامعة ولكنه لم يكمل طريقه المعتاد بل انحرف يمينا وقال السائق ان الطريق مغلقة . توقف فنزلت . سارت فى اتجاه تمثال نهضة مصر ثم تجاوزته بخطى سريعة تقصد الجامعة فى نهاية الطريق التى كادت تخلو من المارة . حين بدت لها القبة وبرج الساعة كانت ايضا ترى ان هناك حشدا من البشر أمام السور . غذت الخطو ولم تكن الآن تفكر سوى فى الوصول . لم يكونوا طلابا بل عسكر . حائط من العسكر . مئات الخوذات الرصاصية المتلاصقة ، مئات الأحذية السوداء الثقيلة ، الزى الكاكى الواحد والدروع والهراوات . وشمس تواصل التقدم اليهم . يخفق قلبها ، تسمعه ، وتواصل . مااللذى فعلوه فى الأولاد ؟ تقترب

— ممنوع ياست !

— ابنى فى الجامعة .

ــ الجامعة مغلقة ! .
ــ لكن ابنى بالداخل .

تحرك حذاء أسود للأمام خطوة وارتفعت يد تلوح مهددة بهراوة :
ــ اقصرى الشر واذهبى يا امرأة !

استدارت فى صمت وعادت ادراجها فى اتجاه التمثال . فى حلقها غصة تمتد الى صدرها فتقبضه . يقفون كالحائط فماذا تفعل ؟ كانت خائفة ، ليس منهم ولكن على على والأولاد . عندما وصلت الى التمثال انحرفت يسارا وسارت بمحاذاة مشتل الزهور عند الطرف الشرقى لحديقة الأورمان « سأصل الجامعة من الناحية الأخرى » قالت : « ولو منعونى ؟ » . تنهدت وواصلت . فى الشارع الجانبى الضيق رأت سيارات الجيش التى تنتظر والجنود الذين يجلسون داخلها . أخذت تحصى السيارات « هل هى حرب ؟! » « تساءلت باستنكار ومسحت العرق عن وجهها وعنقها » ، ولو منعونى ؟ فكرت « سأقول لهم اننى موظفة .. موظفة بالادارة » .. « ولو سألونى ؟ » أبطأت الخطو وهى تجتهد فى ايجاد رد .

عند التقاطع واجهها نفس الحائط من الخوذات والدروع والأحذية الثقيلة .
ــ ممنوع ياست . الجامعة مغلقة !
ــ ولكننى أعمل فى الجامعة . أنا الممرضة فى العيادة .
ــ لاعمل الآن فى الجامعة . الجامعة مغلقة !
ــ سأقبض راتبى . العيد كما تعلم بعد يومين . والقبض هذا الشهر مبكر .
ــ انتظرى .

ترك العسكرى مكانه وذهب ليستفسر . كيف جاءتها هذه الفكرة ؟

كيف كذبت بكل هذه الثقة ؟ تنهدت « الله كريم ! » عاد العسكرى واضطربت مساحة ضيقة من كتلة الأجساد المتراصة امامها افسحوا لها طريقا كأنه باب ضيق انفتح فى الحائط المدرع . مرت وعاد كما كان . وتقدمت شمس بعد ان اصبحت وحدها داخل الساحة المطوقة بالجنود .

دخلت الى الحرم الجامعى من بوابة صغيرة ملاصقة للبوابة الحديدية الكبيرة التى كانت مغلقة . لم تدخل المكان ابدا من قبل ولكنها كانت تراه حين تمر أمامه بالاتوبيس غارقا فى الشمس تملؤه ضجة الطلاب داخل السور وخارجه . أولاد وبنات يرتدون ملابس من كل نوع ولون يروحون ويجيئون او يتحدثون وهم واقفون او يضحكون على خلفية من المبانى العتيقة ذات الطابقين والقاعة المقببة وبرج الساعة . تراهم فتبدو لها الجامعة حديقة كبيرة يقضى فيها الأولاد والبنات وقتا طيبا . ويصعب عليها تخيلهم فى قاعات الدرس التى لم ترها الا مرة واحدة فى فيلم سينمائى . كان البطل والبطلة طالبين . جلسا فى القاعة متجاورين وراحا يتهامسان . وكان آخرون يضحكون ضحكا مكتوما لكيلا يسمعهم الأستاذ المنشغل بالشرح .

طافت بعينيها فى المكان فكادت تنكره . فلا شمس فيه ولا بشر وكأنها تحت هذه السماء الغائمة تقف وحدها فى مقبرة بلدتهم ساعة الغسق . فما العمل ؟ لمحت شابا نحيلا يخرج من أحد المبانى ويهبط السلالم القليلة الفاصلة بين الباب والأرض . ركضت ناحيته ، التقته فى منتصف الطريق . سألته لاهثة :

— هل أنت طالب هنا ؟

بتحفظ أجابها :

— أنا موظف بالادارة ، الجامعة مغلقة !

لو لم تسأله قد لاتجد سواه ، ثم انه فى سن الأولاد ، ستسأله مرة اخرى :

— ابنى كان فى الاعتصام ولا أدرى ماذا حدث ؟

لايجيب ويبدو وكأنه سوف يدير لها ظهره ويمضى ماذا لو ذهب الآن ؟ عيناها معلقتان بوجهه .

ــ قوات الأمن دخلت الجامعة فى الفجر وألقت القبض على كل الأولاد والبنات الذين كانوا هنا وأخذتهم .

ــ أين ؟

ــ لا أعرف !

تركها وابتعد . واحست شمس بساقيها لاتقويان على حملها . فمنذ أتاها الخبر وهى لاتصدقه تماما . كانت تأمل ان يكون الاولاد معاقبين داخل الجامعة . ما العمل الآن ؟ ظلت واقفة فى مكانها لعلها تجد شخصا آخر تسأله . دقت الساعة ثم عادت فدقت ولما دقت للمرة الثالثة سارت ببطء فى اتجاه البوابة .

ليس حائطا بل طوق . فكرت شمس وهى تتابع ببصرها العدد الهائل من القوات الذى لاينتهى بانتهاء مبانى الجامعة الى يمينها والى يسارها . لم تر فى حياتها كل هذا العدد من العسكر .. كأنها حرب ! واصلت السير حتى وصلتهم . أفسحوا لها مكانا للمرور ولاحظت وهى تمشى بمحاذاة الجنود وقد اصبحت الآن خارج الطوق انهم جميعا صغار ، ربما كانوا دون العشرين . وجوههم بنية أحرقتها الشمس ، وملابسهم الكاكية كالحة والأجسام المتراصة التى بدت لهم عن بعد منتصبة ومتخشبة بها ارتخاء المتعب . ما الذى بينهم وبين الأولاد ؟ كادت تسألهم ولكنها لم تفعل واستمرت . لم تتوقف لتركب الاتوبيس . ستكمل الطريق سيرا الى البيت . ما العمل ؟ لو أن أبا الاولاد حى لنوّرها واشار عليها ! لو ان بشرى فى القاهرة ... هل تبرق لها بالحضور ؟ ستفزعها بلا داع وقد يعود على إلى البيت قبلها . لاتدرى ما الذى اصاب هذه البنت تزداد كل يوم نحولا كأنها تحمل هما . بعد يومين تعود لقضاء العيد معهم . سيعود على قبل ذلك . ان شاء الله سيعود قبل ذلك . حين وصلت الى نهاية الجسر فى المنيل كان صوت المؤذن يتردد فى

المكان عبر مكبرات الصوت المثبتة فى مئذنة المسجد المجاور فاستبشرت خيرا « انه آذان الظهر » فكرت وهى تتمهل فى خطوها وتتمتم « عزيز الله أعظم والعزة لله » .

وكررت شمس ذات العبارة وهى تقف فى الشرفة حين سمعت آذان العصر . وكانت فى انتظار عودة على او حتى سيد لعله يحمل اخبارا . منذ وصلت البيت وهى توبخ نفسها لأنها لم تلح فى سؤال ذلك الشاب عن مكان الأولاد . كان يجب ايضا ان تستفسر من العساكر ربما قال احدهم شيئا . هل أخذوهم الى السجن ؟ وأى سجن ؟ لمحت سيد وهو يدخل الشارع . فتحت الباب ووقفت تنتظر على الدرج ثم نفد صبرها اسرعت لتلتقى به امام البوابة . صعد معها وكاد يجلس على اول مقعد فى طريقه ولكنها قالت له انه من الافضل ان يقفا فى الشرفة حتى يلمحا على لعله يعود الآن .

قال سيد بصوت خافت وكأنه يعترف بذنب :

— خالتى ، أمينة أختى كانت ايضا فى الاعتصام ولكنها قالت لأمى انها ستقيم عدة ايام عند صديقة لها للمذاكرة .

— وأمينة ايضا ؟

سألته شمس فى لهفة وكأن هناك احتمال ان يعيد النظر فيما قاله . فلما أكد لها الامر انفجرت فيه موبخة .

— وانت الاكبر ، وانت اخوها كان يجب ان ترشدها بدلا من المداراةعليها . تزجون بانفسكم فى المشاكل ولا تفكرون فينا أبدا . سيقيم ابوك الدنيا ويقعدها ولن الومه !

ولكنها نزلت معه لتساعده فى نقل الخبر الى أبيه وامه ،تركت باب الشقة

مفتوحا « حتى يعرف على ان عاد اننى فى البيت » .

وكما توقعت فقد اقام عبد التواب الدنيا وقال انه آخر زمن تسجن فيه البنات مع العاهرات . قال : « ومن يدرى ... قد يتحولن الى عاهرات فى نهاية المطاف ، ألا يكذبن على أهلهن وينمن فى نفس القاعة مع الشباب فى الجامعة ! » . وكان وجهه محتقنا وهو يضرب كفا بكف ومنيرة تبكى كأنها المسئولة ولا تقول شيئا . وتدخلت شمس :

— وحّد الله ياعبد التواب ، أمينة عاقلة وست البنات . لقد أخطأت حين كذبت عليكم ، صحيح ، ولكنها لم تذهب الى مكان بطال . كانت فى الجامعة تشاكس الحكومة . ومن يدرى لعلها كانت تتفرج فأُخذوها مع الآخرين .

ولكن عبد التواب لم يكن ينصت . كان يكرر انه آخر زمن وان البنات فجرن ويقول لمنيرة انها فشلت فى تربية بناتها . ثم التفت الى سيد كأنه تذكر فجأة انه موجود وصفعه على وجهه وهو يصرخ :

— يا ابن الكلب انت السبب ! تترك اختك تنام فى الجامعة بين الشباب وانا اقول صار سيد رجلا ، تفوه على هذه الخلقة من الرجال .

وبصق على الارض . وفوجئت شمس كما فوجىء عبد التواب ومنيرة وسيدة بمديحة التى مازالت فى الثانوى تقول لأبيها :

— أنت مخطىء يابابا لا داعى لكل هذا المهرجان . أمينة اختى لم تكن بملهى سيىء السمعة . كانت فى الجامعة تناضل من اجل مستقبل البلد .

وسقط كلامها كشرارة على برميل البارود الذى كانه عبد التواب فانفجر

والقى بنفسه عليها يريد ضربها وهو يزأر بكلمات غير مفهومة . وحاولت شمس ان تقف بينهما فأزاحها عن طريقه واختلط صراخه بصراخ مديحة ببكاء منيرة وضاعت كلمات شمس وسيد . ثم هدأ الجميع وساد الصمت .

النـوم فـى العســل

□ □ انسحبت الكآبة على البيت كسماء غائمة تطبع المدينة بخاتمها الرمادى الكابى . كان الأمر يفوق قدرتهم جميعا على الفهم . فالسجن بالنسبة لهم لم يكن سوى المكان الذى يُزج فيه بالقتلة واللصوص والخارجين على القانون العادل . فكيف لهم ان يربطوا بين الولد على والبنت امينة والسجن ؟ وزاد من ارتباكهم ظهور رئيس الجمهورية على شاشة التليفزيون بزى عسكرى موشى تزينه عشرات الاوسمة وهجومه العنيف على الاولاد . كان الرجل يفتح فمه وهو يضغط على مخارج الالفاظ ثم يطبقه فجأة ويزم شفتيه فتتشابك الخطوط على جبينه المقطب وتجحظ عيناه . وبشكل مباغت يسقط فكه الأسفل كأنه دمية خشبية تحركها الخيوط ويبتلع فمه المفتوح ثلثى وجهه . وعلقت منيرة باستهجان :

— كبير وقد الدنيا ويعمل عقله بعقل الأولاد !

وضحكت مديحة ساخرة :

— لقد فقد رئيس الجمهورية عقله ياأمى !

ولم تقل شمس شيئا . لم تفهم هذا الرجل ذا الهيئة الغريبة ولا الكلام الذى قاله .. كما لم تفهم حبس الأولاد . وزادها ارتباكا أن بشرى منذ عودتها منكمشة

وبعيدة . صحيح ان البنت لم تكن فى أى وقت كثيرة الكلام تميل بطبعها للهدوء ولكن ليس الى هذا الحد «. مابك ؟ » سألتها فى الليلة السابقة .. « لاشيء ! » أجابت . هل هو القلق على أختها !

وكما غسلت شمس وجهها مرتين ودلكت جفنيها فى الحمام حتى لايلحظ أحد انها كانت تبكى صباح يوم العيد فقد ارتدت احلى ملابسها فى اليوم التالى وقالت لبشرى ومديحة انهامستعدة للذهاب الى سلمى . ورغم ذلك كادت نفسها تخذلها وهى تصفف شعرها أمام المرآة حين رأت نفسها فى كامل زينتها وكأنها فعلا فرحة بالعيد . امتلأت عيناها بالدموع وأحست بغصة فى الحلق .. ولكن ماذنب سلمى ؟! تمخطت ونادت على البنتين للنزول .

لم يكن بيت العروسين بعيدا ، ذهبن سيرا . عبرن الشارع العام المزدحم بالسيارات ثم مشين فى شارع جانبى حتى وصلن الى النهر وكانت سلمى تسكن عمارة جديدة تطل عليه .

خطت شمس الى عتبة العمارة بقدمها اليمنى وتمنت أن يعود على « هذا المساء » ثم استدركت « الآن ... نعود فنجده بانتظارنا » ولم تكن المرة الأولى التى تدخل فيها البيت ولكنها قالت لنفسها « العمارة جديدة .. وربنا سميع ! » . وتمّنت .

صعدن الى الطابق الثالث وضغطت مديحة على زر الجرس فأحدث صوتا منغّما كالموسيقى . فتح العريس . وكان لامعا ومعطرا . ولاحظت بشرى ان سلمى بعد مصافحتهن جلست ملاصقة لأمها وان وجهها واذنيها إحمّروا عندما سألتها شمس ان كانت بخير .

ولم تكن سلمى ولا عريسها يعلمان شيئا عما حدث فى الجامعة . علقت مديحة باندفاع ساخر أحرج شمس :

ــ صح النوم ! منذ ثلاثة أيام والبلد مقلوبة . أخرجت الحكومة الطلبة المعتصمين فى الجامعة بقوة الشرطة واعتقلتهم . قامت مظاهرات فى وسط البلد وقوات الأمن فرقت الناس بالعصى والقنابل المسيلة للدموع وحشت سياراتها بمعتقلين جدد . وأصدر وزير الداخلية بيانا قال فيه : ان الامر شغب قامت به قوى مندسة وعميلة . ورئيس الجمهورية تحدث فى التليفزيون وكل الجرائد نشرت صورته وفمه مفتوح كالمغارة وأنتم ... نايمين فى العسل !

فاجأهن العريس بضحكة عالية راضية عن النفس وقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ كأنه مدرس فى فصل لمحو الأمية :

ــ نحن عروسان يامديحة !

وضحك مرة اخرى . وسقطت ضحكته على شمس كانسكاب كمية غير متوقعة من الماء البارد على رأسها . وقالت بشرى وهى تقوم من مقعدها انها هى التى ستصنع الشاى ولحقت بها مديحة قائلة انها ستساعدها .

توقفت بشرى أمام باب حجرة النوم وقد لاحظت غطاء السرير الصوفى . راحت تتأمله وتفكر فى قدرة أمها على صنع الأشياء الجميلة . كان المفرش مشغولا من خيوط الصوف الابيض والازرق التى تتشابك وتلتف مكونة وحدات تتكرر لورود بيضاء على خلفية من الازرق السماوى .

دخلت مديحة الى الحجرة فجذبتها بشرى من يدها وهى تقول ان ذلك غير

مناسب ، قالت مديحة :

ــ طبعا غير مناسب ، بل جارح ، بكل المقاييس الفنية وغير الفنية !
ــ عَمَّ تتحدثين ؟

سألتها بشرى وقد أدركت انهما يتحدثان عن موضوعين مختلفين . فأشارت مديحة الى لوحة معلقة فوق السرير ، صورة لامرأة عارية كبيرة الثديين والردفين مضطجعة بشكل يبرز عريها .

ــ انها فعلا رديئة !

قالت بشرى وهى تشعر بالحرج وتدفع بمديحة فى اتجاه المطبخ لعمل الشاى :
ــ أقسم بالله العظيم لو اننى مكان سلمى لغادرت البيت غير آسفة بسبب هذه اللوحة !

كانت مديحة ثائرة . ضحكت بشرى وهى تشعل الموقد وتقول ان البيوت لاتتقوض بسبب لوحة .

لحقت بهما سلمى فى المطبخ . راحت تعد صينية الشاى وهى تعتب على اختها لأنها لم تخبرها بما كان من امر على وأمينة . صبت بشرى الشاى فى الفناجين وحملته مديحة الى الصالون .

ورغم ان سلمى قصدت ان تطلب من اختها ان تذهب هى بالشاى الا انها بعد ذلك لم تجد ماتقول . وسألت نفسها ان كانت هذه المساحة من

الصمت هى مساحة من الحرج جديدة فى علاقتها بصديقتها ككل تلك المستجدات الأُخرى فى حياتها . أربكها السؤال وعقد لسانها .

كذلك بشرى لم تقل شيئا الا بعد دقائق . قالت وهى تحيط كتف صديقتها بذراعها وتسير بجوارها الى الصالون : « تعالى نشرب الشاى » .

كانت مديحة تحرك السكر فى الشاى وهى تقول بحماس ان الطلبة يطالبون بالديموقراطية وبالاصلاح الاقتصادى وبالاستعداد الجدى لمواجهة الاحتلال الاسرائيلى لسيناء .وعلق سعيد على ذلك وهو يقدم فنجان الشاى الى شمس : « كلام فارغ ! » .

شربوا الشاى فى صمت .. وفى نهاية الزيارة وهن على وشك الخروج صافح سعيد شمس مرة أخرى وابقى يديها بين يديه وهو يقول :

— إطمئنى ياست شمس الحكومة لن تؤذى الأولاد وهى تعرف تماما انهم ليسوا سوى اطفال متهورين يجهلون مصالحهم . المهم : عليكم عندما يخرجون بالسلامة ان توبخوهم حتى لايعودوا الى مثل تلك الاعمال الطائشة .

وشعرت شمس عندما سمعت باب الشقة يطرق — وكانت تعبر بوابة العمارة الى الشارع مستندة الى ذراع بشرى — انها حزينة . وفسرت ذلك بأنه يصعب على الأم دائما ان تترك ابنتها وراءها مع رجل غريب . ثم عاتبت نفسها على الفكرة : إنه زوجها ، فكيف يكون غريبا ؟!

لم تقل شمس شيئا طوال الطريق الى البيت . وكذلك بشرى وبقيت مديحة صامتة ايضا حتى إشرفن على الوصول فقالت :

— لو كان على كبيرا لاستمعنا لرأيه .. لقد كان رأيه صائبا ! ثم لم تفتح فمها ثانية .

٤

آلام بشـــرى

يواصل القطار رحلته ، يطوى مساحات الاخضر المزروع . وبشرى تتساءل : كيف بهذه السرعة صار ذلك المبنى الصغير وجودا كابوسيا يقبض القلب كالمقابر ؟ تتساءل فتزداد انكماشا فى مقعدها ويبدو وكأن القطار واهتزازه الرتيب وصفيره المباغت حمل على صدرها .

تقوم من مقعدها ، تستند بيديها الى مقاعد الركاب خشية السقوط من اهتزاز القطار المسرع . تمر بعدد من التلميذات ، البعض منهن يمص أعواد قصب السكر ، والبعض الآخر يغنى على ايقاع طبلة بلدية .

ـــ رحلة؟

سألت :

ـــ رحلة « اعرف بلادك » .

أجابت احداهن ثم عادت لمشاركة زميلاتها الغناء . واصلت بشرى الى عربات الدرجة الثالثة لتدخل دورة المياه فى نهايتها . عبرت بصعوبة من الممر الفاصل بين المقاعد الخشبية والمزدحم بالسلال والامتعة والمسافرين الجالسين على الأرض طالعتها نفس الرائحة واجتهدت كما فى كل مرة ان تحدد ماهيتها . رائحة عرق انسانى ؟ رائحة الأرض والسماد وروث البهائم ؟ رائحة الحليب ام رائحة الحلبة فى البتاو ؟ رائحة نفاذة تميز المكان تماما كما تميزه الوجوه البنية المعروقة للركاب وتلك المرأة الكبيرة التى تفترش الأرض بثوبها الأسود الفضفاض وتضع على فخذيها طفلا نائما . وابتسمت بشرى وهى تتوقف عند ملاحظتها بأنه هناك دائما امرأة كبيرة . هناك طبعا أخريات ، يفترشن الأرض ، ويغفين وهن جلوس ، ويقطعن الوقت بالثرثرة ويقسمن القرص . ولكن هناك دائما ، أصرت بشرى ، امرأة كبيرة تسم المكان وتميزه كتلك الرائحة التى تفشل فى تحديد ماهيتها .

تعود الى مقعدها فيعود لها السؤال : كيف بهذه السرعة ؟ وكأن الرحلة ليست هى الرحلة ولا القطار هو القطار الذى حملها للمرة الأولى الى مقر عملها ، المبنى الاصفر الذى يضم المدرسة ضمن المنافع الاخرى للوحدة المجمعة .

وقفت امام مبنى عتيق تشققت أخشابه وتساقط طلاؤه بشىء من وجل ، طرقت ثم دخلت . قامت المرأة من خلف مكتبها لمصافحتها . وجه أبيض

مستدير وجسد ممتلىء وشعر مصبوغ بالحناء وحاجبان رفيعان مقوسان كأنهما خُطا بقلم ، ونظرة فاحصة فى العينين المكتحلتين أربكتها . دعتها الناظرة للجلوس فجلست . دقت جرسا فدخلت امرأة نحيلة سمراء .

ــ اسألى الست بشرى ماذا تشرب ياأم خليل . ونادى على « الستات » .

ــ حاضر ياست الناظرة .

ثم أتت « الستات » سنية التى تلبس الباروكة وتوصلها الى منتصف جبهتها وعلية التى لاتلبسها وتترك شعرها مشعثا بشكل ملفت . بعدها أتت « الدكتورة » لتناول القهوة والدردشة . ممتلئة الوجه والصدر والأرداف تماما كالناظرة وشعرها مثلها ايضا مصبوغ بالحناء ولها نفس العينين المكتحلتين والنظرة الفاحصة .

« لابد انهما توأم » فكرت بشرى ساعتها ، ومازالت تستغرب هذا التشابه الشديد بين امرأتين لاتربطهما صلة دم .

قالت الناظرة وهى تضحك : عرفت كل شىء وتعرفت بالجميع وإن شاء الله تستريحى معنا ونستريح معك .

ــ والتلميذات ؟

تنهدت بشرى وهى تفكر انها وحدها ، وحدها كما لم تكن فى أى وقت مضى . كادت تحدث أمها ثم أحجمت فماذا تقول ؟ وعلى محبوس مع باق الطلبة ، وسلمى غارقة فى عسل لزج لاتعرف كيف ستتخلص منه . حين

عادت الى القاهرة هذه المرة كانت تنوى ان تتحدث معها ، تحكى لها عن الصغيرات اللائى يقطعن الطريق الطويلة الى المدرسة سيرا لكيلا يتعلمن شيئا ، وحشد النساء اللائى يفترشن الارض مع صغارهن وتمر عليهن الساعات فى انتظار « الست الدكتورة »« التى تكون مع شبيهتها تشرب القهوة وتنتظر خروج الست سنية من درسها لكى تقرأ لها الفنجان ، والمكتبة المغلقة لأن الكتب عُهدة ، والمشغل المتوقف . أرادت أن تحكى لها عن هذه الأمور وسواها ولكنها انشغلت بموضوع على وامينة وحين التقتا وقفتا صامتتين كأنهما ليستا بشرى وسلمى اللتين عاشتا طفولتهما معا واكتشفتا الف شيء سويا وتضاربتا واختلقتا اسبابا للصلح بعد دقائق وتهامستا بأشيائهما الصغيرة مليون مرة . فلمن تحكى اذن ؟ واين تذهب بتلك المرارة التى تملأ فمها ثم تشعر بها تنزلق فتعتصر معدتها أم أن المرارة تأتى من معدتها المنقبضة وتستتب فى الفم ؟ .

يبطىء القطار ثم يتوقف فى محطة . أطفال نحاف يقتربون من نوافذه قفزا ليبيعوا بضاعتهم . البنات الذاهبات فى رحلة « اعرف بلادك » يشترين فى صخب . وتلاحظ بشرى ان عيون الاطفال السوداء الواسعة تبرزها نحافة الوجوه وتلاحظ ايضا ان احدهم ينتعل حذاء ، وتفكر انها سوف تصل الى البلدة التى تعمل بها بعد نصف ساعة .

توقف القطار . نزلت وركبت سيارة أجرة بالنفر حملتها مع آخرين الى البلدة ثم حملت حقيبتها الصغيرة وسارت باتجاه المسكن .

وفى الليل حين آوت بشرى الى فراشها وجدت نفسها تستعيد ماشاهدته على مدى الشهرين اللذين عملت فيهما ، يختلط فى ذهنها المشهد اليومى لشرب القهوة والثرثرة بالوسادة الرصاصية التى بحجرة الكشف بالنظرة الفاحصة فى عيون الشبيهتين والحواجب المنتوفة بعناية . ولما راحت فى النوم

رأت نفسها تقف وراء باب الوحدة وكان الباب مواربا يسمح لها بأن ترى ولا يسمح لهم بأن يدخلوا . وكانوا يقفون فى صف طويل يتعرج حتى خط الافق يختفى فيه ولا ينتهى انضغطت الوجوه تحت وطأة الأوجاع . والتوت الملامح وجحظت العيون . النساء فى ثوبهن الفلاحى نحيلات كالأعواد منتفخات البطون رغم ذلك ، يحملن على أكتافهن وجنوبهن وأذرعنهن صغارا منتفخى البطون . الرجال فى الجلاليب القطنية الزرقاء يتحركون مع النساء فى ايقاع منتظم كأنهم يدفعون الباب بغية الدخول ويُصدرون أصواتا كأصوات الصيادين ساعة جذب الشباك . همهمة جماعية كأنها أنين أو حشرجة أو لغط محتج ، وهى وراء الباب الذى يسمح لها بأن ترى ولا يسمح لهم بالدخول .

واقعة البامية

□ □ حين طرقت أم خليل الباب ودخلت كانت بشرى منهمكة فى الدرس ، كانت تتحدث عن تصور المصريين القدماء لفكرة العقاب والثواب فى الحياة الأخرى :

« وبعد ان يعبر الميت الارض الفاصلة بين عالم الاحياء وعالم الاموات يتوجه الى قاعة المحاكمة وما ان يدخلها حتى ينحنى ويقبل عتبتها . هنا فى هذه القاعة الفسيحة المزدحمة بالقضاة والآلهة تحاسب كل نفس على ماقدمت هنا ــ وضعت علامة بيضاء فى أقصى يمين اللوح الأسود ــ يجلس أوزيريس على العرش الالهى . وجهه مغطى بالأخضر علامة الخصب والنماء وجسده ملتف بثوب ضيق أبيض علامة الصلاح والاستقامة .

وفى القاعة اثنان واربعون قاضيا على الميت ان يتوجه اليهم مدافعا عن نفسه ، مثبتا لبراءته ، مؤكدا طهر روحه من كل شر . وبعد ان ينتهى من ذلك يتقدم الى صدر القاعة حيث نصب الميزان ــ رسمته على اللوح ــ ميزان هائل يحيط به الآلهة : إلهة العدالة وإله الحكمة الذى يحمل لوحة ويسجل عليه وقائع المحاكمة ، وإله الموتى الذى يركع تحت الميزان ويتأكد من سلامته » .

ساعتها دخلت أم خليل واقتربت منها وسألتها بصوت هامس :

ــ ست بشرى ، لو سمحت ،عندك فى البيت سكاكين ؟

ــ سكاكين ؟!

ــ نعم ، أصل لامؤاخذة الست سنية غائبة ، والست الناظرة قالت بدل ماالبنات تقعد من غير عمل تتسلى بتنظيف بعض الخضروات .

ولم تنتظر بشرى لتسمع باقى الكلام . هرولت الى الصف الثانى الاعدادى حيث كانت البنات . لم تكن ام خليل قد فقدت عقلها . رأت بشرى ذلك بعينيها : كل ثلاث بنات يجلسن متجاورات وقد فردن أمامهن صفحتى جريدة مفتوحتين ووضعن أمامهن الخضروات ، بامية وكوسة وفاصوليه . وكان البعض قد بدأ فعلا والبعض الآخر ينتظر ... السكاكين !

اندفعت بشرى الى الغرفة المجاورة وفتحت الباب لتجد نفسها فى مواجهة الناظرة والدكتورة اللتين كانتا تحتسيان القهوة .

ــ خير ياست بشرى ؟

ـــ البامية !

ـــ البامية ؟ أية بامية ... سلامة عقلك ؟

ـــ البنات يجئن الى المدرسة للتعلم ام لتقميع البامية ؟!
وكان صوتها الآن حادا وعاليا .

ضحكت الناظرة ضحكة مغناجة وقالت الطبيبة وهى تبتسم :

ـــ اجلسى واهدئى .. يظهر انك متعبة من سفر الامس .

والله انى تصورت ان فيه مشكلة .

اعتدلت الناظرة فى جلستها وقالت بصوت شديد الجدية والسلطة :

ـــ الست سنية غائبة وبدلا من ان يضيع اليوم على البنات قلت كأنها حصة تدبير منزلى .

ـــ والخضار لمن ... ان شاء الله ؟!

قالت بشرى بمرارة .

علا صوت الناظرة :

ـــ هل نترك البنات بلا عمل ؟ هل هى فوضى ؟!

— اعطى البنات حصة اضافى .

— من ؟

— أنت !

— أنا مشغولة ، عندى مهام إدارية !

— هناك المكتبة .

— مغلقة !

— افتحيها .

— ليست من اختصاصى .. امينها موجود يغلقها او يفتحها المكتبة تابعة للوحدة المجمعة .. ليست مسئوليتى !

خرجت بشرى من الحجرة وطرقت الباب وراءها . عادت الى الفصل وطلبت من التلميذات ان يفتحن كتاب الجغرافيا ويتدربن على رسم خرائط الدرس السادس .

وما ان انتهت الحصة حتى خرجت لتبحث عن أمين المكتبة ولكنه لم يكن موجودا .

ولما عادت الى البيت جلست على اول مقعد صادفته وظلت جالسة عليه

حتى الليل . لم تغسل وجهها ، لم تذهب الى الحمام ، لم تأكل . وكان الغضب الذى ملأها بالرغبة فى العراك والتشابك بالألفاظ والأيدى قد انحسر وحل محله إحساس بالكآبة والخيبة .

أمسكت قلما وكتبت رسالة الى سلمى

أشعر بالضيق واطرح اسئلة تربكنى ولا أجد من أتواصل معه . أفكر فى حمل حقيبتى والعودة الى أمى وأسأل نفسى ان كان قرار كهذا يعنى الهرب أم انه يكون سلوكا واقعيا يعترف بحقيقة اننى وحدى غير قادرة على مواجهة الاوضاع المتردية التى تحيط بى لأننى ببساطة لا أعرف كيف ومن أين .

محبتى

بشرى

بعد أسبوع استلمت رد سلمى على رسالتها .

بشرى ،

هل أنت الآن أفضل ؟ لابد ان نلتقى . أشعر بضرورة ذلك وأشعر ايضا انه ليس لدى أى نصيحة جاهزة تساعدك على مواجهة مشكلتك .

هل يحزنك ان تعرف اننى ايضا اشعر بالضيق والوحدة ؟ كثيرا ما أتساءل ما الذى اتى بى الى هنا . قبل يومين استيقظت من نومى فى الليل وللحظة بدا لى أن يدا عابثة نقلتنى من بيتى الى هذا المكان الغريب بدءا من أثاثه (الذى اخترته بنفسى !) وانتهاء (ولا تحزنى) بسعيدا

سلمى

□□□

٥

اللبّان
يرى الأولاد
وينظر اليهم باستغراب

سمعت شمس خطوات على ثم صوت انسكاب المياه فى الحمام . فتحت عينيها وهى تفكر انها نامت ليلها الطويل ربما للمرة الأولى منذ ثلاثة أسابيع .

على باب الحمام التقت بعلى يجفف وجهه وشعره بالمنشفة . بادرها « بصباح الخير ياأمى » فجذبته من رقبته وقبلته وهى تقول ضاحكة : « ياصباح الخير كله ! » وقالت لنفسها ان الله لابد راض عليها . ألم يعد لها عليّاً بالسلامة ؟

حين دخل البيت عليها قبل يومين اطلقت زغرودة وتعلقت بعنقه كأنها هى الابنة وليست الام ثم هرولت الى الشارع واشترت زجاجات شربات الورد الأحمر وصبت منه فى الاكواب وخلطته بالماء ووزعت على الجيران وحتى المارة فى الطريق دعتهم للمشاركة .

واجتمع اهل البيتين فى شقتها . تحلقوا حول على وأمينة يستمعون الى حديثهما الصاخب حول الذى صار .

قالت أمينة :

ـــ يبدو اننى كنت قد غفوت لاننى استيقظت على صوت أحدهم يكرر فى مكبر الصوت ان قوات الامن اقتحمت الجامعة .

قاطعها أبوها :

ـــ أنمت وأنت جالسة على الكرسى ؟

ابتسمت مديحة بخبث لسؤال أبيها وأجابت أمينة انها وبعض زميلاتها كن ينمن لبضع ساعات فى إحدى المقصورات الجانبية للقاعة . تضم كل منهن مقعدين مشكلة منهما سريرا من نوع ما وتنام .

قال على :

ـــ اذن كنت نائمة حين ناقشنا الأمر ؟ لقد عرفنا منذ أحاطت سيارات الأمن بأسوار الجامعة .

ـــ يبدو أننى كنت نائمة لأننى استيقظت لأجد بعض الضباط داخل القاعة فعلا وكان الشاب يطلب منا عبر مكبر الصوت أن نخرج فى هدوء .

ـــ بدأنا نخرج فى هدوء متتابعين وكأننا تلاميذ مدرسة يغادرون الفصل بانتظام بعد انتهاء الدرس . ولكن الوقت لم يكن ظهرا بل فجرا شتائيا . برج الساعة عن يسارنا ومبنى كلية الآداب المواجه له ثم مبنى كلية الحقوق عن يميننا . كانت كلها كتلا داكنة تحت سماء بنفسجية . هل كان البعض منا قد سبق واتفق على ذلك أم أن الامر جاء عفويا وجماعيا بهذا الشكل المدهش : علا صوت البعض بالغناء فاذا بنا جميعا ننشد :

بلادى بلادى بلادى لك حبى وفؤادى

وتوجه على الى امه بالحديث :

ـــ تخيلى يا أمى .. تخيلى هذا المشهد .. أكثر من ألف ولد وبنت ينشدون معا فى هذه الساعة المبكرة من الصباح !

أكملت أمينة :

ـــ سرنا فى الممر المرصوف الذى يقطع العشب الأخضر فى مدخل الحرم الجامعى متجهين الى سيارت الأمن ثم ركبنا فى أقسامها الخلفية المسقوفة بالقماش . جلسنا على المقاعد الخشبية المتوازية . كنت سوف أموت من البرد وخصوصا عندما تحركت السيارات !

ـــ وأنا أيضا !

ــ ولكننا نسينا !

ــ نعم نسينا ــ أكد على ــ حين بدأنا نكتب تلك الأوراق الصغيرة . كل ماوجدناه معنا من ورق ابيض استخدمناه . قسمناه الى اوراق صغيرة كتبنا على كل منها « اصحى يامصر » وأخذنا ننثرها فى الشوارع التى نمر بها .

ــ لم يكن ضوء الصباح قد انتشر تماما بعد . وأنا رأيت رجلا يركب دراجته ويحمل على جانبها قسطين كبيرين من أقساط الحليب . رأيت بائع الحليب ينزل من على دراجته ويلتقط ورقة من الأوراق التى نثرناها ويتطلع فيها ثم يتطلع الينا بتساؤل واستغراب . رأى زميل ما رأيت . فقال : اكتبوا عن اعتقالنا » فصرنا نكتب : « اليوم تم اعتقال ١٥٠٠ طالب وطالبة من داخل جامعة القاهرة » أخذنا نكتب على قصاصات الورق وننثرها فى الطريق حتى لم يعد معنا ورق .

كان على وامينة يتحدثان بحماس وتأجج وكأنهما يقصان وقائع مغامرة مثيرة . ولكن وجهيهما كانا شاحبين . فكرت شمس : انهما يضحكان ولكنهما مرهقان . قالت :

ــ بعد غد الغداء عندى ، سوف أذبح ذكر البط .

قال على :

ــ ولماذا ليس غدا يا أمى ؟

ــ بعد غد ، بعد غد لكى تكون بشرى معنا .

ولكنها كانت تكذب . كان عليها ان تفى أولا بالنذر .

النـــذر

□ □ فى صباح اليوم التالى توجهت شمس الى الصاغة وباعت احدى الاسورتين اللتين اهداهما لها زوجها يوم ولادة على . أخذت ثمن الاسورة من الصائغ وهى تكرر فى داخلها : « لا أفرط فى هديتك ، لا أفرط ولكنه النذر والنذر دين » .

بعد ذلك ذهبت الى الجزار واشترت لحما وطلبت منه ان يقسمه ويوزعه فى لفافات مستقلة . وضعتها جميعا فى سلتها التى اصبحت ثقيلة . حملتها وركبت الأوتوبيس المزدحم الى ميدان السيدة زينب ثم نزلت وسارت الى المسجد وهناك وزعت اللحم . وبعد أن أوفت النذر خلعت حذاءها ووضعته مع السلة جانبا ودخلت الى الضريح وأمسكت بقضبانه وهمست للغالية المدفونة فيه :

«يابنت بنت رسول الله .. ياطاهرة .. جئتك فى غمتى وشكوت فاستجبت يا أم العواجز .. احفظى لى بشرى وعلى واطرحى البركة فيهما واجعليهما للناس خيرا يا أم هاشم .. ليس لى الا هما .. هما عيناى ، بدونهما تصير الدنيا ظلاما .. هما ساقاى ، فكيف امشى من غيرهما .. هما ثوبى وغطائى .. روحى فيهما ياطاهرة فابعدى عنهما أولاد السوء والحكومة وعسكرها واشفعيلى عند ربى » .

كان وجهها مبللا ومنابت شعرها ايضا . وكانت الدموع تنسال من عينيها فى هدوء حتى شعرت بثوبها عند الصدر مبللا كذلك . ملست على قضبان الضريح مرة اخيرة ثم ملست على صدرها ومسحت وجهها بكلتا يديها وعادت الى البيت تملؤها السكينة .

لن يعرف احد شيئا عن ذلك . قالت شمس لنفسها وهى تجلس مع على يحتسيان الشاى . سأل على عن موعد وصول قطار بشرى فقالت له انه يصل عادة فى الثانية عشرة ظهراولكنه من الأفضل أن يسأل للتأكد .

سيذهب لاستقبال اخته ويعودان معا الى البيت . وسيلتم شمل الأحباب كلهم على الغداء اليوم . حتى سعيد زوج سلمى سيكون حاضرا . غالبت شمس تنهيدة وهى تؤكد لنفسها : غدا ينصلح حالهما ويصبحان اكثر من السمن على العسل . ومن يدرى لعل سلمى تأتى بطفل يهدىء سرها ويملأ البيت عليهما . قبل يومين حين زارتها لفت نظرها شحوب وجهها ، سألتها :

ــ هل أنت حامل ياسلمى ؟

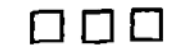
فاحتدت وقالت انها ليست حاملا وان كانت فستجرى عملية اجهاض !

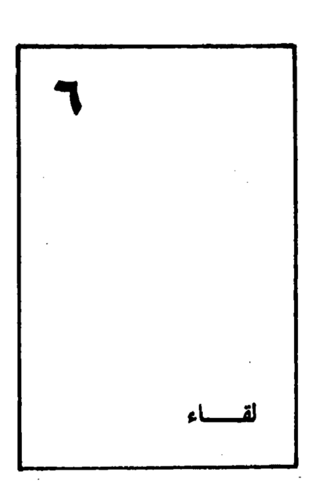
ما الذى اصاب البنت ... عين ؟! لقد وبختها على كلامها « عيب ياسلمى ... وحرام ! » زجرتها وكأنها مازالت طفلة فى العاشرة ولكن قلبها رغم ذلك كان يوجعها على البنت .

قامت شمس ولملمت محل الافطار وصعدت الى السطوح لتذبح البط .

أوقدت الوابور ثم ملأت الصفيحة بالماء ووضعتها على النار . سارت الى الحظيرة الصغيرة التى بالطرف الآخر من السطوح واخرجت منها البطة الاولى امسكت بها بيدها اليسرى . وبيدها اليمنى التقطت سكين الذبح المسنون وبحركة واحدة سريعة ومدربة مرت بها على رقبة البطة وهى تبسمل ثم القت بها بعيدا مضرجة فى دمائها . أخرجت البطة الاخرى واعادت الكرة . أنزلت صفيحة الماء

من على النار وأطفأت الوابور . جلست على الكرسى الخشبى الصغير بجوار البطتين المذبوحتين اللتين كانتا قد خمدتا تماما . تناولت احداهما وغمستها فى الماء الساخن وبدأت فى نتف ريشها الاسود حتى صارت عارية تماما الا من جلدها المحبب . وضعتها فى وعاء نحاسى وتناولت البطة الثانية .





غادر الشاب بشرى فعادت الى دورتها المعتادة ، درست وقومت ووبخت وعلا صوتها وتوترت وابتسمت ومدحت وشجعت وصححت كراريس وشربت الشاى وقرأت وكتبت رسالة لصديقة وتحممت وأكلت وآوت الى فراشها ، وصورة الشاب فى مخيلتها لاتفارقها . قال انه سوف يعود ، فهل يعود ؟ ماالذى يجعله هكذا اليفا ؟ انه ليس وسيما ، ربما كانت ضحكته العالية الحرة هى الجميل فيه ام انها قدرته على الحديث ؟

بعد ثلاثة أسابيع عاد ليستكمل بعض البيانات الخاصة بالبحث الذى يجريه حول التعليم فى الريف . أدهشتها قدرته على بلورة الامور والربط بين الظواهر

قالت له ذلك . ضحك فبدا لها جميلا ، من قال انه ليس كذلك ؟ .

سافرت الى القاهرة فى عطلة قصيرة . قضت يومين بالعاصمة ولما عادت سألت ان كان قد جاء فى غيابها . قالوا لم يأت . وكانت الآن تعرف انها حين تستيقظ فى الصباح تنتظر شيئا بخلاف لقائها مع تلميذاتها ونوع المعركة التى ستفتعلها الناظرة . وكأن وعيها انقسم على اثنتين احداهما تتحرك فى السياق اليومى تفعل وتقول ، والأخرى انتحت جانبا من الطريق ووقفت تنتظر .

مرت أسابيع طويلة لم يأت فلما ذهبت الى القاهرة اتصلت هى به فى مقر عمله « هل انت بخير ؟ » سألت فضحك وقال انه بخير وقال « أهلا » . اتفقا على أن يلتقيا .

رأته بشرى وهو يعبر الطريق فى اتجاهها ولاحظت انه ازداد نحولا فبدا وكأنه دون العشرين . بعد ان تصافحا سألته عن عمره فقال انه فى الرابعة والعشرين « إذن فأنت اكبر منى بسنتين »قالت وهى تضحك وتسير بجواره الى المقهى الكبير المشرف على النيل . نزلا عدة درجات فطالعتهما صفحة النهر تمتد مابين الضفتين . جلسا على مقعدين متقابلين ملاصقين للشاطىء تظللهما شجرة وارفة . وكان بإمكانهما رؤية العمارة الحديثة للبنك الاجنبى والتى استبدلت بالسواتر الخشبية المعتادة للنوافذ زجاجا داكنا يمكّن من بداخلها من رؤية من فى الخارج ولا يسمح بالعكس ، وكذلك العمارات الجديدة العالية التى يسكنها رجال الاعمال وكبار المهنيين .

فى النيل كان الاتوبيس النهرى يشق طريقه بسرعة تؤكدها الحركة الوئيدة لصندل محمل بالأوانى الفخارية ولبعض القوارب الصغيرة لفقراء الصيادين .

قال طه :

ــ أهلا يابشرى !

ابتسمت وقالت انها افتقدته ولاحظت انه ارتبك للعبارة فارتبكت ولم تدر ماذا تقول .

جاء النادل . طلبا كوبين من الشاى . سألها طه عن المدرسة :

ــ أفضل .

ــ بمعنى ؟

ــ بمعنى أن الناظرة لأنها تخاف ولا تختشى صارت تتصرف بدرجة أقل من الفُجّر . تعرف اننى لن اترك ماتفعله يمر دون « شوشرة » ... ويمكن ايضا بمعنى اننى صرت اتحمل اكثر وأواجه أكثر ــ ثم وهى تضحك ــ صار فى شيىء من الخرتيت : جلد سميك وقرن ينطح !

ضحك وضحكت . إستأذن ليذهب الى دورة المياه وتساءلت بشرى وهى تنتظر ان يعود ان كانت قد اصيبت بانفصام فى الشخصية . منذ اسابيع طويلة ، ربما ثلاثة أشهر الآن ، وهى تستحضر صورته كل يوم ، تذكره وتفكر فيه . وحين تأوى فى الليل الى فراشها تخلع نظارتها وتغمض عينيها فتراه ويدور بينهما حديث هادىء وناعم ودافىء كلحظات الخدر بين الصحو والنوم . ومع ذلك فقد جلست أمامه رزينة وعاقلة تحدثه بهدوء كأنه شخص عابر التقته مصادفة فى مكان عام . ولكنها عادت توبخ نفسها وتستغرب افكارها . كيف يمكن ان يدور

بينهما حديث مختلف ؟ وهل كان يعقل أن .. لمحته قادما سألته وهو يتخذ مكانه أمامها :

ــ ولكنك لم تقل لى ماهى اخبارك .. ماذا تفعل ؟

ــ أعمل كثيرا وأشعر بشيىء من الارتياح لذلك .

ــ ليس لك أصدقاء ؟

ــ لى أصدقاء كثيرون . وكان لى صديق ، صديق واحد حميم ــ توقف برهة ثم أكمل ــ ولكنه ذهب . وأنت ؟ باغتها بانتقاله السريع الى سؤالها .

ــ نعم ، نعم ، انا ايضا لى صديقة حميمة . نشأنا معا ولكنها تزوجت من رجل مقرف اسمه سعيد . أشعر انها فى مأزق حقيقى ولا اعرف كيف اساعدها .

ــ هلى لديها أولاد ؟

ــ لا ، فقد تزوجت مؤخرا .

ــ ربما كان من الأفضل ان ينفصلا .

ــ ربما .

قاما ثم توقفا ليدفعا للنادل حساب الشاى . سألها وهما يصعدان الدرج

يقصدان الشارع ان كانت تحب القراءة قالت انها كانت تجد متعة فى قراءة الكتب المقررة عليها فى قسم التاريخ ولكنها لم تتعود قراءة كتب خارجية فابتسم وهو يقول لها انهما اذن مختلفان فابتسمت رغم ارتباكها لتعليقه .

وقفا ينتظران على محطة الأوتوبيس وحين لحت بشرى الأوتوبيس الذى ستركبه قادما فوجئت بنفسها تسأله ان كان بامكانهما ان يلتقيا ثانية قبل ان تسافر .

الأبـــواب الـمواربـــة

□ □ خرجت الى الطريق قبل ان تفكر انها سوف تفعل . لم يكن بالامكان الانتظار داخل الجدران . انحرفت يمينا مخلفة وراءها المبانى الاربعة للوحدة المجمعة : الوحدة الصحية ومجلس القرية والمشغل والمدرسة . سارت بمحاذاة المصرف الذى كانت مياهه كالمعتاد راكدة لها لون اخضر داكن . مرت بثلاثة اولاد يجلسون على حافته يستذكرون دروسهم تحت الفروع المتدلية لشجرة صفصاف . تجاوزت جاموستين تتحركان بثقل تسوقهما بنت صغيرة . وكانت تمشى بخطى سريعة كأنها على موعد . سارت فى الممر الطينى الضيق الفاصل بين حقلين مزروعين قمحا وعندما اصبحت محاطة بالزرع توقفت وقد بدا لها انها كانت تقصد المكان . « أنا أحب هذا الشاب ، من المؤكد اننى احبه » ومع ذلك فلم تكن تعرف كيف تتعامل مع هذه الحالة التى وجدت نفسها فيها . لم تكن جموحا ولا صخبا ولكن شيئا يفيض داخلها تقف ازاءه وجلة ومسلمة امرها . سرحت البصر الى القمح الاخضر ، كان يموج بحركة ناعمة بفعل الهواء . راحت تقطف بعض السنابل وتجمعها فى باقة وواصلت سيرها على الحز الطينى الضيق وهى تترنم بلحن قديم أليف . « يصعب ان اعود الى البيت هذا المساء ،

سيصعب » . قالت لنفسها وهى تترك الحقل الى الطريق الترابية .

التقت بفاطمة الموظفة فى مجلس القرية وبصحبتها فتاة لاتعرفها . تصافحن وقالت فاطمة أن من بصحبتها تقوم ببحث عن شخصية المرأة الريفية وانها تأخذها الى البيوت لتسأل القرويات . استوقفت فاطمة فلاحة فى مقتبل العمر :

— مساء الخير يازينب ، الأستاذة حورية تكتب بحثا عن الفلاحة وتريد أن تسألك .

— ياختى بلا هم — أشاحت المرأة بوجهها فى نفاد صبر — مالنا ومال المباحث ، خليها تشوف حد رايق !

— هل جننت ؟! الست تريد ان تسمع منك عن الزراعة والفلاحة . هل ذكر أحد المباحث ؟! بحث يعنى تكتب المفيد فالحكومة تقرأ وتتصرف بالمفيد !

وكان صوت فاطمة الذى بدأ حادا وموبخا فى مطلع الجملة قد هدأ تدريجيا حتى عاد لدرجته المعتادة عند ختامها .

— طيب ياختى !

قالتها المرأة بنفس درجة الحدة وكأنها تجيب على اساءة .

— أقول ايه ؟ قولى أقول ايه ؟! أقول المظبوط ؟! المظبوط أن الزراعة خرة ! اكتبى ياست اكتبى عندك فى الأوراق ان الزراعة خرة وماعادتش جاية ثمنها ، اكتبى ياختى اكتبى اننا بنشقى طول اليوم ومانلاقيش اللضى فى

آخره ــ أشاحت بوجهها ثانية وهى تتحرك بعيدا عنهن ــ والنبى يافاطمة حِلّى عنى ، حِلّى عنى ياشيخة دانا مش ناقصاك !

وقفن مشدوهات كبلهاوات ثلاث لايفهمن سببا لحدة المرأة التى كانت تسرع الخطو فى طريقها دون ان تلتفت اليهن . وعلقت فاطمة على السنابل التى بيد بشرى :

ــ مالك ياست بشرى ماسكة القمح كأنه ورد !

فارتبكت بشرى ولم تعرف ماذا تفعل بالقمح . فكرت فى الاستئذان والعودة الى البيت ولكن فكرة قضاء المساء بمفردها منعتها .

ــ الى اين انتما ذاهبتان ؟

سالتهما ، فأجابت فاطمة :

ــ سآخذ الاستاذة حورية الى عزبة « أبو مرج » ابنة عمتى متزوجة هناك وهى تعيش مع سلايفها وحماتها ويمكن للأستاذة تطبق الاستبيان عليهن .

ــ هل آتى معكما ؟

رحبتا فسرن ثلاثتهن بجوار حقل القمح الذى صار الى يمينهن ثم اتجهن يمينا مرة أخرى فعدن الى المصرف . مشين بمحاذاته حتى وصلن الى الطريق العمومية وأخذن ينتظرن . توقفت سيارة نصف نقل .

ـــ أبو مرج ؟

سألت فاطمة . أشار عليهن السائق بالركوب . كان يجلس بجواره رجلان . صعدن فى الجزء الخلفى من السيارة المسقوف بقماش من التيل السميك . جلسن متجاورات على اللوح الخشبى الممتد على أحد جانبى السيارة . على اللوح المقابل كان يجلس فلاح كبير يضع على كتفيه عباءة سوداء يلفها عليهما كأنها شال ويرتكز بمرفقيه على ركبتيه المتباعدتين .

ـــ الى أين ؟

سأل :

ـــ الى « أبو مرج » .

قالت فاطمة :

ـــ هل تسكُنْ هناك ؟

ـــ لا ، أنا من الكفر ، والاستاذة تعد بحثا عن المرأة الريفية ، والآنسة مدرسة فى مدرسة الوحدة .

ـــ ماشاء الله !

قالها الرجل بابتسامة لم تستطع بشرى ان تلتقط دلالتها . كانت التجاعيد على وجه الرجل تشير الى أنه طاعن فى السن ومع ذلك كان فى عينيه بريق وحيوية

يكذبان ذلك . واصل الرجل الكلام :

ـــ كان ابى رحمه الله يقول : « البنت عشر عورات لما تتزوج تتستر واحدة أما التسعة الباقيات فلا يسترها الا الموت » ـــ ضحك ضحكة خشنة وبصق بصقة بعيدة من الباب الخلفى المفتوح ثم أكمل ـــ وكانت امى تقول له « صحيح : موت البنت هنا ولو شوارها على القنا » ألا يفيدك هذا الكلام بشيىء يابنتى ؟!

وكان يوجه سؤاله الى حورية وتلك الابتسامة المحيرة لاتزال على شفتيه . وتساءلت بشرى ان كان يسخر من تلك الأمثال الدارجة ام يسخر منهن ام ان السخرية من صنع خيالها . سألته :

ـــ وأنت مارأيك ياحاج ؟

فعاود الضحك وقال :

ـــ أنا فلاح !

وسرح البصر الى الطريق ايذانا بانتهاء الحديث .

كانت السيارة الآن قد تجاوزت الطريق الأسفلتية الممهدة وانحرفت الى سكة ترابية ضيقة فصارت تترجرج بشدة حتى اضطرت البنات الى الامساك باللوح الخشبى الذى جلسن عليه خشية السقوط . .أما الشيخ . الجالس فى مواجهتهن فقد بقى ثابتا فى مكانه وعيناه الحاضرتان فى وجهه البنى المجعد كعينى صقر ، يبدو نصفه الأعلى بانحناءته البسيطة ومرفقيه المرتكزتين على ركبتيه كهرم صغير .

توقفت السيارة فنزلن . ناولن السائق أجرة الركوب ومضين .

قادتهما فاطمة فى طريق ترابية . مررن ببعض البيوت ابوابها مواربة ولكن بشرى التى لاحظت ذلك لم تتمكن من رؤية شىء مما بداخلها . امام واحد منها كانت عجوز فى الثياب السوداء التقليدية تفترش الأرض . تابعتهم بعينيها حتى انحرفن الى زقاق جانبى ضيق . أفزعت خطواتهن الدجاجات وطفلا صغيرا يحبو وتبدو مؤخرته العارية من ثوبه القصير . وأخيرا اعلنت فاطمة « وصلنا ! » فتوقفن امام بيت من طابق واحد تزين جدرانه الجيرية رسومات بهتت الوانها بفعل القدم : قطار وسفينة وجمل والكعبة ومسجد يعلو قبته هلال اخضر وتحيط بها عدة مآذن . تتوسط المسجد عبارة المدينة المنورة ، وفوق باب الدار الخشبى جملتان كتبتا فى سطرين متعاقبين : « حج مبرور وذنب مغفور » و « سالمة ياسلامة رحنا وجينا بالسلامة » .

كان الباب مفتوحا فدخلن الى باحته تتقدمهن فاطمة التى انحرفت مباشرة الى اليمين فولجت باب احدى الحجرات وهى تنادى على ام سيد ، ابنة عمتها .

على طرف السرير العريض المواجه للباب كانت تجلس عجوز طاعنة فى السن ، صغيرة الحجم كصبية بدت ضفيرتاها الرفيعتان وكأنهما خيوط فضية مجدولة .

ــ مين ؟

قالت بصوت مباغت وعال نسبيا :

ــ أنا فاطمة ياستى سجر ، فاطمة بنت عزيزة ام مصطفى . قالت فاطمة

وهى تقترب من العجوز وتلامس كفها لمصافحتها . كانت المرأة عمياء . قالت لها فاطمة ان معها ضيوفا من « مصر » سلمت عليهن وهى تطلب من « الولد سيد » ان ينادى على امه وزوجات اعمامه . ساعتها فقط لاحظن سيد الذى كان يلبس بيجامة ذات خطوط طولية زرقاء .

جاءت ام سيد مهرولة وهى تنشف يديها فى اطراف ثوبها وفى اذيالها طفلة صغيرة لم تثبت خطواتها تماما . بعدها جاءت جميلة وجمالات .

رحبت بهن النساء الثلاث بدا واضحا لبشرى انهن السلافات اللائى يعشن فى نفس الدار . ثم نادت ام سيد على سيد ــ الذى كان قد خرج من الحجرة وهى ترفع ثديها الايسر بيدها اليسرى وتخرج منه بيدها اليمنى منديلا معقودا . جاء سيد وهمست فى أذنه وهى تفك المنديل وتناوله عملة ورقية . قال الولد بصوت مسموع : « سأذهب بشرط ان اشترى واحدة لنفسى ! » حدقت فيه امه وهى تعض على شفتها السفلى متوعدة ..

أخذ الولد الفلوس وطار لكى يحضر المطلوب . والتفتت اليهن المرأة وهى تعيد الترحيب وتؤكد ان « البلد نورت » وقالت فاطمة ان الاستاذة حورية جاءت لتطبق استبيانا يعنى أسئلة عن موضوع المرأة وانها سوف تسأل ام سيد عن رأيها . وصعد الدم الى وجه ام سيد وهى تضحك فى شبه استنكار « ويكون لى رأى مكتوب فى الكتب ! » دخل سيد وهو يحمل زجاجات الكوكاكولا منتصرا ، وضعها أمام الضيفات .

كانت الحجرة الآن قد امتلأت بالاطفال ولم تعرف بشرى ان كانوا أولاد النساء الثلاث ام اولاد الحارة ولكنهم كانوا قد جاءوا يطالبون بنصيبهم فى الكوكاكولا : « واهمعنى سيد ! » زجرتهن الأمهات فخرجوا وهم يلغطون وتركوا

وراءهم الطفلة الصغيرة وطفلا آخر يقاربها العمر . صبت جميلة لكل منهما قدرا من الكوكاكولا فى كوب صغير من اكواب الشاى .

وانتحت حورية جانبا بأم سيد لكى تسألها . وقالت فاطمة ان « الست بشرى » ايضا من مصر ولكنها تعمل مدرسة . فأشرق وجها جميلة وجمالات وهما ترحبان للمرة الثالثة .

طلبت ام سيد من جميلة ان تقوم لتحلب الجاموسة « وتعمل الواجب للضيوف » علقت الاستاذة حورية انه لاداعى لذلك وانهن شربن الكوكاكولا . ولكن النساء الثلاث اعترضن فى صوت واحد بأنه « مش كلام » .

وسألت بشرى على استحياء ان كان بامكانها ان تشاهد حلب الجاموسة فضحكت جميلة وهى تسألها ان لم تكن رأت ذلك أبدا . شعرت بشرى بالدماء تصعد الى رأسها وهى تتبع المرأتين . دخلت جمالات الى حجرة جانبية ثم خرجت منها وبيدها كرسى خشبى كبير له ظهر وقاعدة قماشتين يغطيهما نايلون شفاف . حاولت بشرى ان تأخذ منها الكرسى الذى كانت تحمله فى يدها اليمنى فى نفس الوقت الذى تحمل فيه طفلها على خصرها الأيسر وتحيط به بذراعها ، ولكنها رفضت . وعندما ألحت بشرى أقسمت ان ذلك مستحيل . سرن فى دهليز معتم ثم دلفن الى مكان ذى رائحة نفاذة لم تتبين بشرى شيئا من طبيعته الا عندما اشعلت جمالات لمبة جاز فرأت الجاموسة .

على باب الحظيرة الصغيرة وضعت جمالات الكرسى الخشبى وقالت : « اتفضلى ياست بشرى » ولم تجرؤ بشرى على رفض الجلوس على

الكرسى رغم شعورها بالحرج والخجل والضيق لأنه لم يخطر حتى ببالها ان هذا الكرسى كان من اجلها .

جلست ، وقرفصت جمالات بجوارها واخرجت ثديها لارضاع الصغير . أما جميلة فقد كانت تقرفص هى ايضا بين قوائم الجاموسة تمسك بضرع البقرة وتدلكه برفق قبل ان تشرع فى الحلب . كانت لمبة الجاز عن يمينها وبالقرب من قدميها تحت ضرع الجاموسة إناء فخارى كبير .. وكانت بشرى تراقب ذلك وهى جالسة على الكرسى عند باب الحظيرة .

ثم بدأت جميلة تحرك يديها فى دربة وسرعة . تضغط وتعتصر صعودا ونزولا فيشخب الحليب فى دفقات متقطعة لها صوت عال ومتميز . ولما امتلأت الآنية بالحليب حتى حوافها استبدلت بها أخرى وواصلت حتى امتلأت .

قامت جميلة وحملت المصباح فى يدها اليمنى وآنية حليب فى يدها اليسرى وقالت : « اتفضلى ياست بشرى » فقامت بشرى وتشبثت بالكرسى لكى تحمله هذه المرة ولكن جمالات اقسمت بتربة ابيها انه لن يحمل الكرسى سواها .

خارج الحظيرة مباشرة توقفت جميلة ووضعت المصباح والآنية على مرتفع طينى وأخرجت من صدرها مفتاحا وفتحت به بابا خشبيا صغيرا لمخزن مُشيّد من الطين ووضعت فيه الآنية بحرص ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأعادته الى صدرها . أخذت اللمبة وذهبت الى الحظيرة ثم عادت وفى يدها الآنية الثانية .

سرن فى الدهليز تتقدمهن جميلة تحمل الحليب والمصباح الذى أطفأته ، ثم جمالات تحمل الطفل والكرسى ، ثم بشرى . وحين وصلن للباحة الترابية بصحن الدار قالت جميلة : « اتفضلى ياست بشرى ، سأسكب الحليب فى الأكواب

وآتى حالا » .

دخلت بشرى الحجرة وكانت حورية مازالت مستغرقة فى أسئلة الاستبيان وأم سيد موردة الوجه يبدو عليها انفعال من يلعب لعبة مسلية للمرة الأولى . والعجوز فى نفس مكانها بأقصى طرف السرير مستغرقة فى عزلتها .

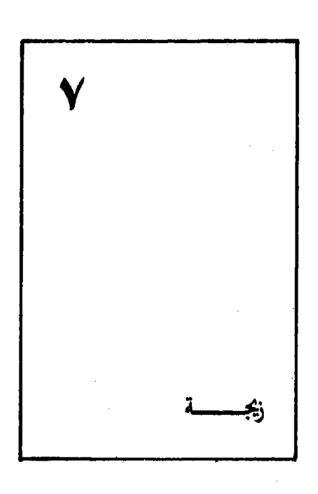
أتت جميلة بالحليب للضيفات الثلاث فشربن . وقررت الاستاذة حورية ان تواصل اسئلة الاستبيان فى يوم آخر لانها لابد أرهقت ام سيد ولأنهن يرغبن فى العودة قبل حلول الظلام ، وشكرتها كما شكرت جميلة وجمالات . تصافحن وسط تأكيدات النسوة الثلاث والعجوز ان لايتأخرن عليهن وان الدار بل الكفر كله « نوّر » و « تتشرف » بالزيارة .

وعندما ركبن السيارة للعودة كان بامكانهن رؤية الفلاحين عائدين من الحقول فى الغسق يثير دبيبهم الجماعى على الأرض الترابية هالة من غبار تلفهم وتتبعهم وهم يسوقون دوابهم .

وكانت بشرى طوال الطريق مستغرقة فى متابعة المشهد وفى التفكير فى تلك الرسالة الطويلة التى ستكتبها لطه . سوف تسر اليه بكل مايشغلها ، سوف تقول له كم تحتاجه وكم تحبه وكم تفتقده فى كل دقيقة الآن .

ولما عادت الى مسكنها جلست للكتابة ، كتبت ومزقت وتوقفت وخلعت نظارتها وتأملت وتحيرت وتساءلت ، لبست نظارتها وكتبت ثم مزقت .. وأخيرا تحققت انها غير قادرة على الكتابة فقامت لتنام .

□□□



استيقظت سلمى بشعور طاغ بالثقل فى رأسها وعينيها واسفل معدتها وما ان اعتدلت فى الفراش حتى داهمتها رغبة فى القيىء هرولت الى الحمام وانحنت على المغسلة وأفرغت مافى جوفها . لم يكن فيه سوى ذلك السائل الأصفر شديد المرارة .

غسلت وجهها وفرّشت اسنانها ودخلت المطبخ لتصنع الشاى . القيىء يملأ المرء بالوهن ، قالت لنفسها ، ولكنه بعد ذلك يتحسن وفعلا شعرت رغم الصداع وبرودة الاطراف انها افضل .

أخرجت شالا صوفيا صنعته لها شمس وتدثرت به وحملت كوب الشاى الى المقعد الملاصق للنافذة الكبيرة . فتحتها وجلست . الشتاء اقبل مبكرا ، فكرت وهى تنظر الى ساعتها . اليوم الأول من نوفمبر . مرت عشرة أشهر كاملة على زواجها وهاهى علاقتها بسعيد تتدهور كأنها حجر يتدحرج من رأس جبل . كيف بهذه السرعة ولماذا ؟ وأيهما المسئول ؟

فى الشهر الأول كان سعيد لطيفا ومتفهما كما كان فى شهور الخطبة . واستحوذت الاشياء الجديدة على اهتمامها ، البيت والاثاث والمطبخ والمهام المنزلية ، كانت كلها جديدة ومثيرة كتلك الدعابات الليلية فى الفراش . فلماذا تحولت الآن كلها الى عبء ، كلها بلا استثناء . البيت حصار ، والأثاث الخشبى الثقيل يجسم على صدرها كأنها هى التى تحمله ، وسعيد يأتيها ليلا مطالبا وهى لاترغب وهو يلح ثم يأخذ عنوة ويتركها بعد ذلك منتهكة وبائسة ثم يروح فى نوم عميق وتدخل هى الحمام تبكى وتغتسل وتتساءل عن الغد .

قال سعيد أنه لايصح وهى المرأة المتزوجة أن تركب دراجة وتسرح بها فى الشوارع كالصعاليك . وقال انه لايصح ان تذهب الى تلك الأماكن الخلوية وحدها . وقال انه لامعنى لخروجها للعمل لانهما ليسا بحاجة ودخله وحده يكفيهما ، قال ان بامكانها ان تعمل فى المستقبل لو لاحت لها فرصة مناسبة ... فكيف تلوح ؟ .

وما العمل اذن ؟ يتكرر السؤال كل يوم . هل تعود الى بيت أبيها ؟ وما الذى سيقوله أبوها ؟ وما الذى يفعله سعيد ؟ وماذا سيقول الناس ؟ وما الذى يجعلها تشعر هكذا بالاختناق ؟! .

تقول خالتها شمس انه هكذا تكون الأمور دائما فى البداية متعثرة ثم يأتى

الأطفال فتستقيم . هل تصدقها ؟ وما الذى سيجعلها تستقيم ؟ .

غسلت وجهها مرة أخرى وارتدت ملابسها وغادرت البيت . عبرت الجسر وسارت بمحاذاة النيل . واصلت وهى تتابع بعينيها صفحة النهر الفضية « هذا النيل جميل ، وصفحته عريضة كصدر انسان رحب » أعجبها التشبيه فكررته وهى ترقب القوارب فى النهر وحركة أشرعتها القديمة والنخيل فى الضفة الأخرى . مشت طويلا مستمتعة بأشعة الشمس القوية الدافئة ، مشت حتى كلت قدماها . نظرت فى ساعتها وجدتها تقارب الواحدة . دخلت الى مقهى على النيل وطلبت كوبا من الشاى وتمنت وهى تجلس لو ان معها ورقة وقلما . ربما كتبت شيئا ... عن ماذا ؟ ... ربما عن صفحة النهر ... ربما لو ان القلم والورقة معها لعرفت عن ماذا ... شربت الشاى ثم بدأت طريق العودة .

حين لاح لها البيت فى البعد كانت قد استعادت ذلك الاتزان الداخلى الذى يجعل جسدها رائقا وهادئا . صعدت السلم ثم أخرجت المفتاح من حقيبتها وأدارته فى الباب ودخلت . كان سعيد بالداخل يشرب كوبا من الشاى . حيته . سأل :

ـــ أين كنت ؟

ـــ كنت أتمشى على النيل .

رفع عينيه مستفهما . سألته :

ـــ هل أسخن لك الغداء .

— لا .شكرا لقد أكلت ، سخنته وأكلت . الساعة الآن الرابعة وانا هنا منذ ساعة ونصف .

سكت ثم واصل ، بدا صارما :

— سلمى هل تعتقدين أن هذا سلوك مناسب ؟

— أن أتمشى على النيل ؟

بدا لها السؤال غريبا . ربما يحتاج سعيد إيضاحا . فسرت :

— كنت متعبة وأردت ان اسرى عن نفسى وفعلا ارتحت تماما من المشوار .

كان صوته حادا الآن ، وكانت هى مباغتة .

— أقول أن تصرفاتك غير مناسبة !

قام من مكانه وأشار الى المنضدة التى تتوسط الغرفة .

— انظرى .. الأثاث يغطيه الغبار .. السجادة لم تكنس منذ عدة أيام .. أطباق العشاء فى مكانها لم تغسل .. البيت قذر — سكت ثم واصل — بل قذر جدا ! ثم ذلك الذى حدث ليلة الأمس .. ماذا أقول ؟ .. لاتريدين تنظيف البيت ولا تريدين ان اقترب منك .. مابك ؟!

لو انه سأل السؤال بشكل مختلف . كانت بحاجة الى التواصل لو

سألها : ــ « ماذا يضايقك ياسلمى ؟ » ربما حاولت ان تجد الاجابة ولكن هذه الصرامة تشعرها الآن بالرغبة فى البكاء .

ــ سعيد اننى اشعر بالغربة .

ــ لا أفهم !

ــ أعتقد ان الامور لايمكن ان تستقيم هكذا .

ــ طبعا لايمكن ، لايمكن أبدا فأنت لاتقومين بأى من واجباتك الزوجية !

ــ أنا لا أقرأ ولا أعمل ولا أقوم بأى شيىء من الأشياء التى أحبها . أشعر أن اليوم يمر بطيئا وكئيبا .

ــ سلمى أنت مدللة ولا تقومين بواجباتك الزوجية . عليك ان تقومى بواجباتك الزوجية . ان استيقظت فى الصباح ونظفت البيت وأعددت الطعام وغسلت الغسيل فلن تجدى وقتا لهذه الأفكار السخيفة . تستطيعين بعد ذلك أن تتصفحى مجلة او تقرئى رواية فى انتظار عودتى . وبعد الظهر يمكن أن آخذك للفسحة .

ــ سعيد أعتقد ان يومى كئيب !

كان صوتها الآن اكثر وضوحا وثباتا .

ــ غدا تحبلين ويأتيك الاطفال ويملأون حياتك .

— أنا لا أريد أطفالا . الآن على الاقل لا اريد اطفالا .

— أنت غريبة الاطوار !

تركته وذهبت الى المطبخ . سمعت صوته يلاحقها :

— هل انا كلب ينبح ، تتركينى هكذا وانا فى وسط الجملة ! لحقها :

— سلمى أنت قليلة الأدب !

— عيب ياسعيد !

— اقول انك غريبة الاطوار وربما كنت مريضة وبحاجة الى علاج . وانا لم أقصّر . قدمت كل الهدايا الواجبة ، ساهمت فى تأثيث البيت ، وفرت شقة لوكس ، وهاهى الثلاجة لاتخلو من اللحم والفواكه !

تركت المطبخ . عائدة الى الصالة وهو يلاحقها :

— ما الذى ينقصك ؟ .. قولى ما الذى ينقصك ؟ أتحداك ان تذكرى شيئا واحد ينقصك . ما الذى ينقصك ؟ ردى ! .

كان يصرخ الآن كأنه معتوه وتساءلت سلمى ان كان زوجها قد اصيب بنوبة عصبية وارادت ان تقول له ذلك ولكنها لم تفعل .

— سعيد هل يمكن ان تكف ؟!

ـــ لا ، اريد ان اعرف ما الذى ينقصك ؟

ـــ كل شيء !

ـــ اخرسى !

لم تتوقع ذلك ابدا ولكنه حدث . لطمها على وجهها . وللحظات بعد ذلك لم تعد ترى سعيد او تسمعه . هل قال شيئا .. هل بقى فى الحجرة .. هل تركها ؟ .. كانت تفكر فى شيىء واحد فى هذه الصفعة الجديدة . ربما تزوجت سعيد لكيلا يصفعها ابوها ولا أى انسان آخر .. ولن يصفعها انسان ابدا .

امضت سلمى بعد ذلك ستة ايام فى بيت سعيد . قلبت فيها الامور على كل وجوهها . لم تبادله حرفا ولم تحادث انسانا . وفى اليوم السابع ذهبت الى بيت ابيها واعلنت انها قررت الطلاق . استشاط ابوها غضبا وتحدثت زوجة ابيها عن الزوجة العاقلة وعن الشيطان الذى عليها ان تخذله وامتقع وجه شمس وتناقش الجميع فى الامر اجتمعوا وانفضوا واتفقوا واختلفوا وضربوا امثالا لاحصر لها عن الخلافات العائلية التى تنتهى دائما على خير . وقال الأب انه لم يحدث من قبل ابدا ان طُلقت امرأة فى العائلة . « لقد اخطأ سعيد وسيأتى ويعتذر وينتهى كل شيء .. طلاق .. سألقى بك فى الشارع ان نطقت بهذه الكلمة مرة أخرى ! » ولكن سلمى كانت قد قررت ما لارجعة فيه : لن تدخل بيت هذا الرجل على قدميها أبدا .. هددوا وتوعدوا ورغّبوا وحايلوا ثلاثة اشهر وفى الشهر الرابع ارسل سعيد بورقة الطلاق .

صداقـــــة

□ □ حملت سلمى قميص نومها وقالت لأهلها انها سوف تقضى الليلة عند بشرى . صعدت السلم ودفعت الباب الذى لم يكن مغلقا كالمعتاد :

ــ مساء الخير ياخالتى .

ــ مساء الخير ، أهلا .

وعرفت شمس التى كانت تتابع تمثيلية تليفزيونية ما ان رفعت راسها ورأت سلمى انها تعاركت مع اهلها ، كان وجه البنت شاحبا . أرادت ان تستفسر عما حدث ولكنها احجمت . كانت تعرف الاجابة « لاشيء ياخالتى » . سألتها ان كانت قد تناولت العشاء فقالت انها ليست جائعة وسألت عن بشرى .

كانت بشرى تجلس أمام المرآة ــ وقد خلعت نظارتها وراحت تصفف شعرها الكستنائى الطويل . لم يكن أحد يراها هكذا أثناء النهار فهى دائما تلبس النظارة وتلم شعرها وتربطه بشريط أسود رفيع او تضفره فى ضفيرة واحدة تلفها خلف رأسها وتثبتها بمشابك من البلاستيك البنى .

وقفت سلمى بجوارها فبدتا معا فى المرآة . بشرى فى قميص نومها الاصفر الفاتح وشعرها المحلول وبلا نظارة تشبه امها كثيرا ، فكرت سلمى ، نفس القسمات الكبيرة الواضحة والبنية القوية . وهى فى البنطلون البنى والقميص البرتقالى نحيلة وطويلة بملامحها الدقيقة وشعرها البنى المموج القصير « أشبه من ؟ » تساءلت :

ـــ مابك ؟

سألتها بشرى . لم تجب ، فكررت بشرى السؤال :

ـــ قلت لأبى اننى قدمت لمسابقة ترجمة واننى لو نجحت فسأحصل على عمل بمرتب ممتاز .. فى فيينا . أنا نطقت كلمة فيينا وعينك ماتشوف الا النور انتفض أبى كأنما لدغته عقربة « وآخر زمن .. بناتى يسافرن الى اوروبا وحدهن ولماذا ؟ قلة شغل ام قلة رجال ؟! » ثم « يابنت الكلب تطلبين الطلاق وتقولين أسافر ! » وكلام كتير عن « الشرمطة » و « المشى البطّال » .

ونفخت سلمى فى الهواء وهى تقول :

ـــ أعوذ بالله .. كأن الأمر كله كابوس !

ـــ وكأنك تتعاملين مع أبيك للمرة الاولى فى حياتك هكذا هو .. هكذا كان .. وهكذا سيبقى . ينفجر ثم يهدأ !

ـــ والمطلوب فى كل مرة ان استقبل انا شظايا انفجاراته فى هدوء كأن لاشىء يتطاير فى وجهى ويصيبنى ويجرحنى ؟!

ـــ قومى اغسلى وجهك !

ـــ ولكنى سأنجح فى الامتحان ، وسأسافر ، ليس فقط لأننى بحاجة لعمل دخله معقول ولكن ايضا بسبب تصرفاته ، فى الخروج : « انت مطلقة » ،

فى الدخول : « انت مطلقة » ، والصبح : « بناتى » ، والظهر : « بناتى » ، والليل : « بناتى » .

ضحكت سلمى فجأة وهى تقول :

— حلمت مرة بأبى وقد وضع بناته تحت حزام عريض شده على خصره خوفا من ان يفلتن وهن يصحن طالبات النجدة لأن الحزام يضغط عليهن الى حد الاختناق وهو يسير بحبور لأنه مطمئن عليهن .

— وكنت تحت الحزام ؟

— لا كنت خارج المشهد ، متفرجة !

— بذمتك رأيت هذا فى الحلم ؟

— لم أره فى الحلم ولكنى رأيته !

ضحكت بشرى ثم قامت سلمى لتغسل وجهها .

آوت شمس الى فراشها . وجلست سلمى وبشرى على البساط متجاورتين تحتسيان الشاى .. قالت بشرى :

— لم احدثك عن ذلك الشاب ؟

— أى شاب ؟

ـــ الشاب الذى اريد ان احدثك عنه .

ضحكت سلمى وهى تسأل صديقتها ان كان فى الامر فزورة .

ـــ ذلك الشاب الذى حدثتك مرة عنه ، الباحث .

ـــ الذى كان يعد دراسة عن التعليم فى الريف ؟

ـــ نعم .

ـــ يغازلك ؟

ـــ لا ...

ـــ تغازلينه ؟!

ـــ انا لاأمزح . انه انسان رائع جدا واعتقد انى احبه .

ـــ ما الذى يجعلك تقولين ذلك ؟

ـــ كلما شاهدت شيئا ، كلما مر بى شيىء فكرت فيه وتمنيت وجوده لمشاركته والتواصل معه والاستماع اليه .

ـــ لعلك منبهرة بذكائه .

ـــ ربما !

ـــ كيف يبدو ؟

ـــ نحيف وأسمر وله شعر أسود مجعد وعينان لوزيتان بهما نظرة مميزة جدا وجميلة جدا .. تأخذ القلب . تصدق انني احيانا اجد نفسي استحضر لون عينيه او لون قميصه او فتحتي انفه او احدق فى حذاء شخص عابر لأنه يشبه حذاءه .. تصدق ؟!

لم تجد سلمى ماتقوله ، توجست .

ـــ ليته يكون رائعا كما ترينه .

ـــ انه رائع ، رائع جدا ولكننى لا أعرف ان كان أمرى يهمه ...

ثم قامتا معا الى المطبخ . غسلت سلمى الكوبين وبراد الشاى الذى ملأته بعد ذلك بالماء ووضعته على الموقد ثم أخرجت أرغفة بلدية من كيس نايلون وأخذت تسخنها فى الوقت الذى كانت بشرى تضع صحنى جبن وزيتون على الصينية . حملت بشرى الشاى والعشاء الى الصالة وتبعتها سلمى وهى تنظر فى ساعتها وتقول أن الساعة تقترب من الثانية وان بإمكانهما لو سهرتا أكثر ان تشاهدا شروق الشمس .

جلستا على البساط وراحتا تأكلان وتشربان الشاى وبشرى تحكى لصديقتها عن مشهد الناظرة وموظفى الوحدة المجمعة حين شرعت هى وتلميذاتها فى تنظيف المكتبة وترتيب الكتب .

ـــ البنات كن يأتين قبل الدراسة بساعة وأحيانا بساعة ونصف . وكان ذلك مؤثرا فعلا لأن معظمهن يستيقظن قبل طلوع الفجر لحلب الجاموسة او تنظيف الدار او تحضير « لقمة » لاخوتهن الذكور ثم يقطعن عدة كيلومترات سيرا على الأقدام للوصول الى المدرسة . ومع كل هذا كن يأتين مبكرات . قسّمنا أنفسنا الى مجموعات وانزلنا الكتب من الارفف . ونفضناها ونظفنا الارفف وغسلنا النوافذ بخرطوم المياه وحككنا الارض بالماء والصابون وفرشة السلك الخشن . ثم أعدنا الكتب بعد ان رتبناها وصنفناها . واكتسبت البنات خبرة عظيمة وارتبطن بالمكان وصرن يألفنه ويشعرن ان هذه الكتب لهن . ثم ان عملنا معا خلق بيننا علاقة جميلة لم تخطر لى ببال .

ـــ والناظرة ؟

ـــ لو رأيت وجهها ! كانت ستموت غيظا وكأننا بعملنا هذا نتعدى على منطقة نفوذها المطلق او نعبث بقوانين الكون ونواميسه . ولكنها لم تجرؤ على التدخل فقد اعطانا امين المكتبة موافقته وتحملت انا امامه مسئولية العهدة كاملة . تعرفى ياسلمى لقد فتحت هذه التجربة امامى آفاقا جديدة للعمل بالامكان ان اتعاون مع الطالبات فى الصيف فى مشروع لمحو الأمية او للتوعية الصحية . سوف استشير طه فى الموضوع .

ـــ طه من ؟

ـــ الشاب الذى حدثتك عنه .

ـــ آه . بالمناسبة هل يلبس بدلة ؟

ـــ لا

ـــ الحمد الله ، أصل سعيد عقّدنى !

ـــ ننام ؟

سألت بشرى وهى تتثاءب :

ـــ لا سنبقى لمشاهدة الفجر .

خرجتا الى الشرفة . وكان الفضاء مازال بنفسجيا به لسعة برد محببة . قالت سلمى :

ـــ هل تذكرين ايام كنا نسهر للمذاكرة معا ونحن فى الثانوية العامة والنوافذ المضاءة التى كنا نحصيها . ونقول « وراء كل نافذة ولد او بنت مثلنا تستعد للامتحان .

ـــ وذلك الشاب أتذكرينه ؟

ـــ طه ؟

ضحكت بشرى للمفارقة فلم تكن هذه المرة تقصده . راحت تذكر صديقتها :

ـــ لا ، الشاب الذى كان يطل من تلك النافذة التى هناك ويظل ينظر فى

اتجاهنا حتى فاجأك بوقوفه تحت البلكونة ذات فجر . هل تذكرين ؟

ــ أذكر ... وأذكر انى ايقظتك من النوم ونقلت لك ماقاله : « وعهد الله ماانت داخله ... انا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف اى شيىء عنك ، لا اعرف الا انك مثلى تسهرين الليل للمذاكرة . أنا احبك » ما ان نطق بهذه الكلمة حتى داهمنى الخوف وطرقت باب الشرفة وسمعته من وراء الباب يقول « انك تسرقين منى وقتى وهذا حرام . أنا لم افعل لك شيئا ولكنى اجلس للمذاكرة فتأتينى صورتك وتستحيل المذاكرة . انك تسرقين وقتى وهذا حرام ! » وركضت لأوقظك .

ــ وحين حكيت لى لم اصدقك وبقيت لعدة ايام اعتقد انك اختلقت الحكاية وانك تمزحين معى .

ــ حتى رأيتيه بنفسك يقف تحت الشرفة ذات فجر وقلت لى حرام عليك ياسلمى .

ــ فقلت لى : « انه شاب فى سنى لايملك لى شيئا ، ليس بإمكانه ان يخطبنى ولا ان يتزوجنى ! »

ــ ألم يعلمونا ان هذا هو عين العقل ؟!

وقفت الفتاتان متجاورتين تسندان اذرعهما الى السياج الحديدى للشرفة وتتطلعان الى الوهج البرتقالى عند خط الأفق . تمنت بشرى لو ان طه كان معهما ليشاهد جمال المشهد أما سلمى فقد كانت تتساءل : « ترى أكان الذى علموه لنا هو عين العقل ؟! »

وصـــــال

□ □ لم تكن بشرى تعرف ان كان طه حين يأوى فى الليل الى فراشه يبادلها ذلك الحديث الهامس الطويل الذى يحيط بكل تفاصيل يومه ويؤرقه افتقادها والحاجة الملحة اليها ، لم تكن تعرف ان كان يكن لها مشاعر كتلك التى تكنها هى له . لم تكن واثقة الا من شيىء واحد فقط هو انها تحبه ولا تجرؤ على مصارحته بما فى نفسها .

وعندما التقيا فى ذلك اليوم كان طه صامتا الى حد الوجوم :

ـــ مابك ؟

سألت .

ـــ لاشيء !

أجاب .

ـــ ولكن وجهك شاحب .

ـــ ربما كنت مريضا .

قالها دون ان يرفع عينيه عن كوب الشاى الذى بين يديه .

دقائق ساد فيها الصمت ثم ؟

ــ بشرى ، أردت ان اقول لك هذا الكلام منذ فترة ولكننى كنت دائما اعدل عنه واقول لنفسى « ياولد هذه مشكلتك فلماذا تثقل عليها وتخلق حرجا وتربكها وترتبك » . ثم اعود فأقول : « انها تهتم بأمرك ياولد ... وان كان الامر خلاف ذلك فلابد انك غبى او مجنون » اقول ان امرى يشغلك ثم اقول ان امرى لايشغلك .

بشرى ، عندما اجلس للقراءة والكتابة كما اعتدت كل مساء يفاجئنى ويدهشنى ويشككنى فى سلامة عقلى اننى انتظرك . أصيخ السمع كلما طرق باب سيارة امام البيت وكلما دبت خطوة على الدرج . اقول : أتت ! انتظر وكأننا على موعد او كأنك تركتينى بباب البيت لتشترى شيئا من البقال المجاور وتلحقى بى او كأن هذا البيت بيتك ومن المنتظر والمتوقع والطبيعى ان تعودى اليه . انتظر ولا تأتين واقول : « ياولد انت بلا شك مجنون فهى لاتعرف عنوان البيت لكى تأتى ولكنى رغم ذلك انتظر : وحين يوغل الليل يجتاحنى البؤس ، بؤس الايتام واقول : « ياولد انت تحبها كأنه ليس لك فى الدنيا الا هى » .

رفع رأسه لأول مرة وسألها :

ــ بشرى ، هل تريديننى ؟

وكانت بشرى تبذل جهدا مضنيا لكى تقاوم رغبتها فى القيام من مكانها لكى تأخذ هذا الولد بين ذراعيها وتضمه وتقول له انها تريده ، كما لم ترد شيئا فى حياتها . وكان قاسيا ان يدور هذا الكلام هكذا فى مكان عام . مدت يديها اليه عبر المائدة وامسكت بيديه ثم مالت بجذعها كثيرا حتى لمست كفيه بشفتيها

وقبلتهما بسرعة ، قبلة سريعة ، مختلسة ، واعية بالمكان .

ثم غادرا المقهى . سارا متجاورين وقد تشابكت ايديهما وظلا صامتين حتى قالت بشرى :

ــ لو كنت اعرف انك تنتظر لجئت . فكرت مرات عديدة فى زيارتك .

ــ تمزحين ؟

ــ لو دعوتنى الآن لشرب الشاى معك فى البيت سآتى !

فى اليوم التالى التقيا لكى يصحبها الى بيته . أدار المفتاح فى الباب وهو يقول : « لابد ان تنبهرى بنظافة البيت لأنى لم افعل شيئا منذ لقائنا بالامس سوى ترتيبه » .

دخلا الى صالة صغيرة تتوسطها مائدة خشبية عليها اناء زجاجى يحمل باقة من الورد الأحمر .

ــ هذه المائدة عمرها ثمانى سنوات من يوم ان استأجر لنا ابى رحمه الله هذه الشقة واثثها لنا . استخدمناها انا وخالد كمائدة للطعام ، وفى المذاكرة والقراءاة ، والكتابة ، ولعب الورق ، والطاولة ، والشطرنج ، والدومينو ، وتقشير الخضروات ، واستخدمت مرات للنوم ، ولكنها المرة الاولى التى تحمل زهورا !

كان وجهه متوردا وهو يضحك . وطلب منها ان تجلس الى أن « يقوم

بالواجب » ذهب وراحت هى تتأمل الارفف الخشبية التى تحمل كتبا تتفاوت أحجامها وتغطى حائطا بأكمله .

عاد حاملا صينية عليها كوبان من الشاى وطبق به قطع من الحلوى . وضعها على المائدة وجلس بجوارها وهو يقول انه تأكد الآن تماما ان امه دعت له فى ساعة كانت كل طاقات السماء مفتوحة . ضحك وضحكت . وقال ان اسم امه عزيزة وان الجميع ينادونها « بأم طه » وانها أم رائعة وان اباه كان رجلا حكيما رغم انه لم يكن يقرأ او يكتب .

— عندما نجحنا فى الثانوية العامة انا وخالد ذهب ابى الى اسيوط واشترى ثلاث تذاكر للسفر الى القاهرة . وفى يوم من ايام شهر اغسطس شديدة الحرارة حملنا حقيبة واحدة بها كل ملابسنا واوراقنا وركبنا القطار وجئنا . قدم لنا ابى اوراق الالتحاق بالجامعة واستأجر هذه الشقة واشترى لنا بعض الاثاث المستعمل ثم جلس هنا فى مكانك واجلسنا امامه وقال :

« أنا لن اوصيكما .. انت ياخالد وحيد امك . حين مات ابوك لم تتزوج ولم تذهب الى بيت اخوالك وشقيت حتى جعلت منك رجلا . وانت ياطه ولدنا البكر ، فلاحك يشرفنا ويرفع رأسنا وسط الناس . وانتما رجلان ، والرجل ليس له ، سوى شرفه . امك ياخالد تقتطع من قوتها لتعلمك وانت ياطه تعرف اننا سنقتطع من قوت اخوتك لتذهب الى الجامعة . ولكن لماذا أقول هذا الكلام ؟ هل له داع ؟! لستم اولاد حرام ، لا والله بل رجال من صلب رجال ! » .

ثم ونحن نودعه فى « محطة مصر » مال على وهمس فى اذنى : « خالد اخوك ، هل تعرف معنى هذا ، ثم انه يصغرك بعام ... تقتسم معه كل شىء لأنه أخوك .. ثم تفضله عن نفسك لأنه الاصغر ولأنه يتيم ... هل اوصيك ؟ » ومن يومها وانا وخالد نقيم معا . هو دخل كلية الهندسة وانا

دخلت كلية الآداب ، هو اصبح مهندسا وانا اصبحت باحثا اجتماعيا . ولما قامت الحرب كنت ايضا مثله مجندا هو لم يعد وانا عدت ؟ هل تشربين كوبا آخر من الشاى ؟

سألها طه ولم ينتظر الاجابة بل دخل الى المطبخ حاملا معه ابريق الشاى الفارغ . وعندما عاد سألته عن أمه .

ـــ امى فى البلد زوجت البنات بهية ونوارة وبقى معها الاولاد ، محمود يفلح الارض وسليمان فى المدرسة . سأريك صورة امى .

دخل الحجرة الملحقة بالصالة ثم عاد وفى يده صورتان .

ـــ هذه صورة خالد .

قالها وهو يمد لها يده بصورة لشاب دقيق القسمات له وجه مستدير وشارب خفيف كالزغب :

ـــ وهذه صورة امى التقطتها لها دون ان تعرف وحين رأتها احتجت على وقالت : « اخص عليك ياطه تطلعنى فى الصورة وشعرى مكشوف ! »

استدارت بشرى لتتطلع الى وجه طه الذى كان يقف وراءها لترى ان كان فى ملامحه شيىء من ملامح أمه .

ـــ انك لاتشبه امك !

ـــ لا امى جميلة كما ترين !

ضحكت وكان هو لايزال مائلا ينظر الى الصورة الموضوعة على المائدة امام بشرى الجالسة . مال اكثر وهمس :

ـــ بشرى ، انا احبك .

تعانقا ، تعانقا طويلا وبدا لبشرى وهى تضمه اليها انها قضت عمرها كله راكضة الى لحظة القرب هذه ، ضمته اكثر ثم انتزعت نفسها قائلة :

ـــ ننزل ؟

ـــ ننزل ...

قبل ان يغادرا البيت دعاها طه لمشاهدة حجراته : المطبخ : الذى اجتهد فى ترتيبه ، الحمام الصغير الذى بنت العصافير اعشاشا على الحافة الخارجية لشباكه الصغير ، حجرة النوم بسريريها المتجاورين . « هذا سريرى وهذا سرير خالد » قال طه ثم اشار الى الدولاب الخشبى العتيق ذى المرآة الكبيرة التى تغطى بابه والذى ينتهى بدرجين كبيرين يعلو احدهما الآخر : « هذا درج خالد ... وهذا درجى » ثم فتح النافذة العريضة وجعلها تطل منها لترى محل الفول بالعمارة المجاورة : « فى الصباح أضع علبة بلاستيك فى السلة وعشرة قروش وأدلى السلة وأنادى على عم احمد بائع الفول فيأخذ الفلوس ويملأ لى العلبة بالفول ويضع معها رغيفين من الخبز البلدى »

— ننزل ؟

— ننزل

وخرجا الى الشوارع .

□ □ □

٨

القلق
يلازم قلب الأم

طالما كررت شمس لنفسها ان الأمور لن تبقى دائما على ماهى عليه . سيكبران وسيعوض الله صبرهما خيرا وستراهما صالحين متعلمين ، ساعتها ستأتى راحة البال . وكانت تتعجل مرور السنوات وتنتظر .

عندما مات زوجها احست انها هى التى تيتمت وليس الطفلان . كانت فى الثالثة والعشرين وبشرى فى الخامسة وعلى ابن عامين . ولما انقضت الايام الثلاثة وتلاوة القرآن والعويل المتقطع وذهبت لابسات الحداد وحمل العمال الكراسى الخشبية التى استؤجرت خصيصا للمعزين جلس الأهل لطرح السؤال : مالعمل ؟

اقترح اخوها ان تنتقل بطفليها للاقامة مع اسرته : « تحتاجين لحماية رجل قال « وفتح بيتين لاضرورة له » ، وقال العم الاكبر للاولاد انه مادام موضوع انتقال شمس وطفليها مطروحا فالافضل ان تكون الاقامة فى بيتهم : « شمس ابنتنا كما هى ابنتكم .. ووجودها مع امى سيخفف عن امى وعنها » حرك اخوته الثلاثة رؤوسهم مهمهمين اشارة الى موافقتهم على رأيه الا ان اختهم توجهت اليها بالحديث : « لاتتركى بيتك ياشمس ! » .

فاجأها هذا الكلام كله لأنها لم تكن قد فكرت بعد فى معنى الفقد . وكلما تقدم العمر بها شعرت بالامتنان لاقتراح رشيدة اخت المرحوم ، اخته التوأم التى ماتت حزنا عليه فى نفس السنة ــ « ألف رحمة عليها وعليه » تمتمت .

وبعد الأربعين بأيام جاءها العم الأكبر للأولاد قال :

ــ لانقبل أن يدخل على أولاد أخينا رجل غريب .. ياشمس انت شابة وجميلة والحمل صعب .. اننى اعرض عليك الزواج ، وهذا رأى أمى . ولن استغرب دهشتك فأنا نفسى دهشت حين اقترحت على ذلك . ولكنى فكرت فى الامر فبدا لى منطقيا . لن اجد زوجة طيبة وجميلة مثلك . وأخى كان غاليا على ، سأصون ذكراه بصونك وصون أولاده ، فماذا تقولين ؟

والآن بعد كل هذه السنوات تقول شمس لنفسها : « لا لا لم يقصد الرجل الاساءة ، لقد أساء التصرف وأساء التوقيت وأساء .. لكنه ابدا لم يقصد الاساءة » . ومع ذلك فقد بدا لها الكلام ساعتها فى قسوة الموت المفاجىء لزوجها . كان موته قد داهمها كما تدهم انسان سيارة ، صدمتها وأفقدتها اتزانها وثقتها بأن الأرض ثابتة تحت قدميها ولكن ذلك العرض بالزواج يجرح كسكين يقطع فى الجسم فجأة .

وحين ترجع شمس الى تلك الايام لاترى نفسها وهى تنظف البيت وتغسل الملابس ، أو الصحون او تحمل سلتها فى طريقها من السوق الى البيت ، ولا ترى نفسها قلقة وشاحبة يستعصى النوم عليها وكأنها هى المريضة وليس أحد الطفلين ، ولا ترى حتى اللحظات الجميلة الصاخبة التى يأتيها احدهما ركضا بخبر نجاحه فتحتضنه وتضحك رغم غصة فى حلقها ورغبة فى البكاء لاتفهم لها سببا . ولكنها دائما ترجع الى ذلك المشهد اليومى حول مائدة الطعام وقد تحولت الى مائدة للدراسة ويكون الوقت مساء . الصغيران منحنيان على كتبهما المدرسية وهى جالسة بجوارهما ترتق جوربا او تحيك ثوبا او تقشر خضرة لغداء اليوم التالى . وقد تغفو وهى تنتظر ان ينتهيا من دراستهما ثم تستيقظ على يد أحد الطفلين يربت على كتفها قائلا « قومى نامى فى السرير ياماما » .

كان يبدو لها طوال تلك السنوات أن الخوف يتبدد عندما لايعود الأطفال أطفالا فكانت تعد الايام وتنتظر ولكنها الآن وهى تصعد الدرج وفى يدها سلتها التى تبدو منها أعواد الملوخية الخضراء ترى بوضوح أن القلق يلازم قلب الأم ، سواء كان الأولاد صغارا او كبارا ، لافرق .

وضعت شمس سلتها على الارض وادارت المفتاح فى الباب ثم دفعته فانفتح . حملت السلة واغلقت الباب وراءها .

وضعت السلة فى المطبخ . ثم اخرجت مصفاة معدنية وضعتها على المائدة الخشبية ثم اتت بجريدة قديمة غطتها بها ثم فردت صفحتين أخريين منها على الأرض بجوار الكرسى الذى ستجلس عليه . أخرجت أعواد الملوخية الخضراء من السلة ووضعتها على الجريدة التى تغطى المائدة ثم جلست وبدأت تأخذ عودا بعد آخر تقطف منه الاوراق وتضعها فى المصفاة ثم تلقى به عاريا على الجريدة التى على الارض .

« من قال ان القلق يذهب ، انه يفيض » كررت شمس لنفسها وهى تفكر فى ذلك الشاب الذى « طلع لهم فى البخت ! » لم تفاجأ بالأمر حين حدثتها بشرى عنه . كانت ترى طول الوقت ان شيئا يشغل البنت . ثم فتحت معها بشرى الموضوع فقالت انه صديق تحترمه وانها تريد ان تعرفهما هى وعلى به ، ولم تقل اكثر ، ساعتها احست شمس بحرج واضطراب كأنها هى التى تحكى لأمها عن شخص تحبه . وتوقف على طرف لسانها الف سؤال ولكنها لم تقل سوى :

ـــ الا تعتقدين انه من الافضل ان يلتقى بأعمامك اولا ؟

ـــ لا ياأمى ، ليس هذا مهما ، المهم انت وعلى .

واستغربت شمس كلام ابنتها ولما جاء الشاب ورأته استغربت اكثر . هل ستتزوج بشرى ولدا ؟! انه يبدو اصغر منها ، ربما كان فى سن على . كان ابو الاولاد ايضا صغير السن حين تزوجا ... ولكن لاوجه ابدا للمقارنة . كان رحمه الله طويلا ووسيما جاء لخطبتها وهو يلبس بدلة وقميصا ابيض وربطة عنق جميلة .

كان لامعا أنيقا ، عريس حقيقى . وهذا الشاب يأتى كأنه ذاهب الى كليته الجامعية ببنطلون وقميص بنصف كم . نحيف جدا حتى ان مفاصله تبدو كالعقد . ترى ما الذى اعجب بشرى فيه .. « لا لا الامهات لتقديم النصح ولفرض الرأى أحيانا » وهذا الولد لايصلح ! « أكدت شمس لنفسها وهى تحمل المصفاة الكبيرة التى امتلأت بأوراق الملوخية الخضراء وتفتح عليها صنبور المياه لتغسلها . ثم تصفيها وتحملها الى الشرفة وتفرد صفحتى جريدة وتنثر عليهما الاوراق لكى تتصفى من الماء وتجف بعض الشىء » .

عادت شمس الى المطبخ . وطوت الجريدة على الأعواد الخضراء العارية وألقت بها فى صندوق القمامة . ثم أخرجت من النملية كيسا قماشيا منتفخا بالأرز ومربوطا بخيط . فكت الخيط وفتحته وكيلت منه كوبين افرغتهما فى وعاء معدنى . أعادت ربط الكيس بالخيط وارجعته الى مكانه ثم حملت الوعاء الى الصالة حيث جلست على الكرسى المجاور للنافذة العريضة لكى تتمكن من تنقية الأرز . « الزواج صندوق مقفل » سألنا عن سعيد ، قالوا ممتاز ، وظيفته ممتازة ، اهله ممتازين ، دخله ممتاز ومع ذلك أشقى سلمى وعادت الى بيت ابيها بعد شهور من زواجها . كان رأى على صائبا حين قال ان سعيد لايساوى شيئا وان زواج سلمى منه خطأ . على رأى طه وتحدث معه طويلا وكأنهما صديقان . وحين ذهب طه سألته عن رأيه فيه فقال « انه شاب بيفهم » ،« يفهم ماذا ؟! » حملت الارز الى المطبخ ووضعته على المائدة الصغيرة ثم اتت بالطبلية الخشبية من وراء باب المطبخ . وفتحت درجا من أدراج النملية وأخرجت المخرطة ثم أحضرت اوراق الملوخية الخضراء من الشرفة ووضعت كومة منها على الطبلية وتربعت على الارض وامسكت باليدين الخشبيتين للمخرطة وبدأت تُعمل نصلها فى الأوراق ببطء فى البداية ثم بسرعة ودربة . انحسر الثوب عن فخذيها ومال جذعها قليلا الى الامام وبدت على جبينها حبات من العرق وهى تواصل حركة يديها صعودا ونزولا الى اليمين واليسار فتقطع المخرطة هلالية النصل الأوراق الخضراء ثم تعيد تقطيعها حتى تصير كومة ناعمة من الخضرة الداكنة .

ولما فرغت من ذلك قامت وغسلت المخرطة ويديها ثم جاءت بالأرز وغسلته وأشعلت الموقد تحت حلة المرق باللحم الذى سوّته فى الصباح قبل نزولها الى السوق وتحت حلّة اخرى وضعت فيها ملعقتين من السمن . صفّت الارز من الماء وامسكت بحفنة منه والقت بها فى السمن المقدوح . ثم امسكت بملعقة خشبية وراحت تحركها حتى احمر لونها . اضافت باقى الارز وكوبين وثلثى كوب من الماء وقليلا من الملح واحكمت اغلاق الحلة وخفضت شعلة الموقد .

أتت برأس ثوم وجلست بجوار المائدة الخشبية الصغيرة تقشره . « ما الذى اعجب بشرى فى هذا الولد ؟ بشرى بنت عاقلة ، هكذا كانت دائما حتى وهى طفلة فما الذى اصابها ؟ الحب اعمى ! تنهدت شمس وهى تضع حبات الثوم فى الهون وتدقه باليد النحاسية الثقيلة .

كشفت على المرق وجدته يغلى فحملت الملوخية المخروطة والقت بها فى الحلة . خفضت النار تحتها واشعلت العين الثالثة للموقد . أخرجت طاسة نحاسية من التملية ووضعت فيها ثلاث ملاعق من السمن ووضعتها على النار . ولما قدح السمن أضافت له الثوم . « بشرى صغيرة وهى امها عليها ان تنصحها وأن توجهها . ولو كانت البنت تحبه ؟! » حركت الثوم الذى كان يطقطق فى الطاسة ثم اضافت له الكزبرة فعبق المكان بالرائحة . كشفت الغطاء عن حلة الملوخية وافرغت فيها التقلية دفعة واحدة وهى تشهق واحكمت اغلاقها على عجل كأن نكهة الاكلة سوف تهرب لو ظلت الحلة مكشوفة . « نتعب عليهم حتى يصيروا كبارا ثم يأتى الاغراب ويأخذوهم منا ! » تنهدت وهى تغسل الطبلية من المادة الخضراء المخاطية العالقة بها . وحتى ان وافقت أنا فإن اعمامها وأخوالها لن يقبلوا فمن هو هذا الولد لكى يتزوجها ؟! سوف يقولون قيمة ابنتك مدير او كبير ، والحق معهم ، أكيد الحق معهم ، هذا الولد لايصلح ، كررت شمس وهى تطفىء النار على الملوخية والأرز وتغادر المطبخ .

□□□

٩

سحـــر المدينـــة

فى البدء كانت الأشياء كلها مدهشة فى عينى سلمى ، من المقعد الذى جلست عليه فى الطائرة الى دورة المفتاح فى باب بيت يخصها وحدها . لم يغلبها التأثر ساعة الوداع فى مطار القاهرة حتى عندما ضمتها شمس وهمست فى أذنها « اعتنى بنفسك وارجعى بالسلامة » غذّت الخطو الى الصالة الجمركية بقوة تقارب الزهو .

فى الأيام التالية كانت فرحة كطفلة تُركت على هواها تذهب الى عملها الجديد ، تتسكع فى الشوارع ، تتناول طعامها فيما يحلو لها من المطاعم

والمقاهى . تنزل على السلم الكهربائى لمترو الأنفاق وتصعد عليه ، يستوقفها الأخضر على الشجر وتأخذ قلبها أبراج الكنائس ومساحات العشب الممتد ، ترقب أهل المدينة المهرولين ومبانيها وحوانيتها وترتيبها وسنّتها وقانونها بعين الرضا والاندهاش .

وأحيانا تشترى عددا من البطاقات البريدية تكتب عليها بضع كلمات الى الأهل والأصحاب . لشمس كتبت أول بطاقة « لاتقلقى ياخالتى ، على غير العادة لم يصدق ظنك هذه المرة فأنا لا أشعر بالوحشة . أناسعيدة جدا . قبلاتى » .

كانت سلمى تتألق فى الوحدة . فلا أحد يأمر ولا أحد ينهى ، لا أحد ينتظر ويقول تأخرت . تعود الى البيت ساعة يحلو لها ، تدير المفتاح فيدهشها الهدوء الذى ينفتح عليه الباب .

أحبت المكان ربما لاختلافه . كان ضيقا بالمقارنة ببيت الأسرة وبيت سعيد . مدخل صغير به حوض معدنى وموقد وباب يفتح على دورة مياه . يفضى المدخل الى حجرة واحدة بها اريكة كبيرة تحولها فى الليل الى سرير ومقعدان وثيران ومائدة مرّبعة وكرسيان . وعلى الحائط المواجه للأريكة أرفف خشبية عليها تليفزيون ومذياع ومسجِّل وبعض كتب أحضرتها معها .

لشهور ظلت سلمى تحتفى بالمدينة الجديدة . أحبت مقاهيها . المقاهى الصغيرة ذات الاثاث الخشبى الداكن والأضواء الخافتة وحيث يتحرك الرواد كالأشباح وسط المكان المعتم العابق بالدخان . والمقاهى الفسيحة ذات المقاعدة العتيقة والاسقف العالية والثريات المتلألئة الضخمة والنساء المسنات بالقبعات على الرؤوس والقفازات فى الأكف ، قُبل العشق وصخب الشباب فى المقاهى الجديدة

تغطى موائدها المفارش زاهية الالوان كالمثلجات فى الصور على الجدران واصناف الكعك والحلوى خلف الواجهات الزجاجية العريضة .

واستهوتها مطاعم الأكل السريع : الهامبورجر والدجاج المحمر وشرائح السمك المقلى وصوانى البلاستيك صفراء او حمراء او خضراء او زرقاء والعلب المعدنية للمشروبات الغازية واطباق الكرتون وفوط الورق وملاعق البلاستيك . تأكل وتشاهد مأخوذة بالصخب والحركة الدءوب ثم تحمل علبة الصفيح والكرتون والبلاستك وتلقى بها جميعا الى علبة القمامة الضخمة وتعيد الصينية لامعة ونظيفة كما كانت .

وقفت مشدوهة أمام البائعات الآلية الكبيرة تشترى ليس لأنها تريد ان تشترى ولكن لانها تريد ان تتفرج . تنظر الى السعر المكتوب تحت لوح شيكولاته والرقم الخاص به ، تضع النقود فى الخانة المحددة وتضغط على الزر المعين فترى عبر الواجهة الزجاجية للبائعة الآلية الارفف المعدنية حاملات السلع : الحليب والجبن والزبد والزبادى والحلوى والشيكولاته تتحرك بسرعة مدهشة ثم تمد يدها فى خانة جانبية لتلتقط لوح الشيكولاته . تختار سلعة اخرى وتضغط على الزر وتكاد تضحك فى سرور طفولى .

وسحرتها تلّة فى الضواحى يؤمها السياح ، سحرتها اشجارها الوارفة التى تجهل أسماءها ونوع الثمار التى تحملها ، والزهور الحمراء والبيضاء والبنفسجية فى كل مكان ، أمام البيوت الصغيرة والمقاهى والمطاعم والحانات ، فى اصص على الشرفات ، فى براميل قديمة وصفائح ، وفى عربة خشبية لفلاح مات قبل قرن او قرنين .

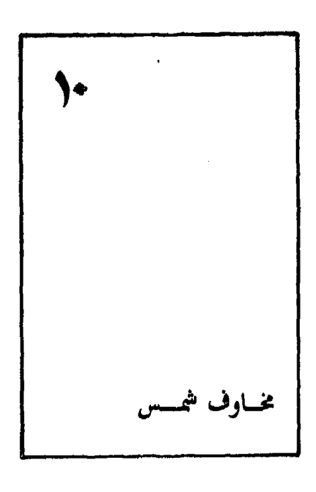
تنتظر عطلتها الاسبوعية . بعد الظهر دائما تذهب ، لو كان الطقس صحوا ومشمسا ولو كان غائما ومطيرا أيضا تحمل مظلتها وتذهب . تتابع التواء

الشوارع وصعودها وتنتظر المساء لكى ترى مصابيح الطريق تضفى أضواءها الليمونية على المارة وتنصت لعزف العازفين فى المقاهى والمطاعم والحانات وتتمنى لو كان معها مايكفى من نقود لترتاد كل هذه الاماكن وتشاهد عن قرب الملابس التقليدية للنادلات والرواد المخمورين عندما تأخذهم النشوة فيغنون جماعة مع العازفين . سحرتها الجذوع منتصبة فى اشجار الطريق وفى بنية الحانات واسيجتها وفى خشب الموائد والمقاعد والاطباق . سحرها النبيذ المعتق فى اباريق الفخار وسحرتها الحانات العابقة بالدخان والموسيقى وانفاس الرواد .

وأحبت الكاتدرائيات . دارت برأسها لترى سقوفها الشاهقة وهى تحدق فى رسومها وفى الزجاج المعشق للنوافذ وتستنشق رائحتها الرطبة النفاذة . وقفت امام مئات الشموع المنذورة تتابع شعلاتها المرتعشة وقواعدها الشمعية البيضاء وقد ذابت وتداخلت . تأملت نساء ساكنات على المقاعد الخشبية يصلين فى صمت واعترتها رجفة امام تمثال المصلوب فى العتمة الفسيحة وقد بدا لها أن به نبض حياة .

ثم استيقظت سلمى ذات صباح خريفى غائم وقد داهمها الوعى بأنها غريبة وان المكان رغم صخبه وأضوائه موحش .

ولكن الثلج حين نزل على المدينة صباح يوم أحد فى نهاية شهر نوفمبر اعاد لها توقدها الطفلى فانطلقت الى الخارج لتلمسه بيديها وجفنيها وانفها وشفيتها : « جميل .. جميل ! » راحت تتمتم كامرأة مأخوذة . وتكتشف سلمى وهى تحدق فى الأبيض الآتى من السماء ال الأرض أن الكون وديع كتلك النظرة فى عينى مسيح بأيقونة أو كحمل ابيض على الزجاج المعشق للكنائس . سارت فى الثلج ووجدت نفسها تبتسم ابتسامة واسعة لأول شخص تلقاه فى الطريق ، قالت « أهلا » وابتسمت فرد لها سلامها نظرة اندهاش صارمة !



هل تتشابك الخيوط لتتصل أم لتتعقد ؟ ألح السؤال على شمس وهى تفكر فى اقتراح على بأن يعقد قرانه على امينة فى نفس الليلة التى يعقد فيها قران بشرى على طه ، وكيف تمانع ولماذا تمانع ؟! ثم أن الاولاد يحكمون رأيهم وهم فى نهاية المطاف احرار فى حياتهم .

ولكنها لم تكن فرحة . كانت تعرف ذلك وتستغربه . هل هو القلق فاض فحجب كل شيىء سواه ؟ وطلاق سلمى وسفرها كالغصة فى الحلق لاتعرف كيف تتخلص منها . وبشرى وعلى كد العمر وحصاده « كل شيىء قسمة ونصيب ! » وبقيت رغم ذلك خائفة .

صحيح انها كانت تتمنى لبشرى شخصا افضل من طه ، أكبر فى السن والمركز ولكن ألم تكن هى التى نصحت على بأن يخطب أمينة ؟ وهل كان بامكانها عمل شيىء غير ذلك ؟! منذ خرجا من السجن وهى تراهما يتبادلان تلك النظرات التى تفصلهما عن كل من حولهما . اكثر من مرة أوقفا الحديث عند دخولها . لم يعودا الطفلين اللذين نشآ فى بيت واحد نشأة الاشقاء . شيىء جد على علاقتهما كانت كل يوم تحدسه وتراه وان فشلت فى تحديده . كانت واثقة من ذلك وقلب الأم لايخيب .

— ياعلى ماالذى بينك وبين أمينة ؟

— لا شيىء ياأمى .

— ياعلى أنا أمك ولم تكذب على ابدا . هناك شيىء بينك وبين أمينة . ولكنه أكد ان مابينهما زمالة وسياسة ولا شيىء غير ذلك .

— فقط ؟

— فقط !

لم تصدقه . كان الخوف يملؤها ليس فقط لأن على ابنها بل ايضا لأن امينة ابنة منيرة وعبد التواب .

— وياعلى أمينة فى وضع اختك .. شرفها من شرفك . إقسم ياعلى ، إقسم ان تحافظ عليها كما تحافظ على بشرى .

كرر أن مخاوفها بلا أساس ولكن المخاوف لم تتركها حتى تلك الليلة التى

وجدتهما يتهامسان فى الظلام على السلم . جفلت :
ــ بسم الله الرحمن الرحيم .. ماذا تفعلان ؟

تلعثما . وهل كان الامر يحتاج سؤالا ! فى اليوم التالى قالت لعلى ان كنت تريدها اخطبها . نحن وبيت عبد التواب اهل ولو ان عمك عبد التواب هو الذى رآكما لكان ضربك وضربها وربما قتلكما او حمل اسرته وبحث له عن بيت آخر . بعد اسبوعين جاءها على وقال انه فكر فى كلامها وانه لايمانع فى خطبة امينة لأنه يعزها ويحترمها ثم انهما متفاهمان تماما وهذا مهم .

وملأت الدموع عينى عبد التواب وهو يقرأ الفاتحة وقال ان الله عوض صبره فى موضوع سلمى خيرا وقال « حين أعطيك ياشمس كأننى اقدم امينة من يدى اليمنى الى يدى اليسرى . امينة ابنتك ياشمس وانا اعرف . مبروك ياعلى وربنا يتمم بخير » . وزغردت منيرة وجذبت مديحة على من عنقه وقبلته وهى تضحك وتقول ان هذا ممكن الآن لأنه صار زوج اختها . وهددها ابوها بنظرة صارمة تجاهلتها وراحت تلح على شمس بأن تنفذ وعدها القديم بأنها سوف ترقص وتغنى يوم ترى على عريسا وقالت شمس وهى تضحك انها سوف تفعل يوم العرس .

وبعد قراءة الفاتحة باسبوعين عادت شمس من السوق فوجدت البيت يملؤه الدخان كأن به حريقا وماذا حدث ؟ .. سألت على وامينة اللذين كانا بالشقة . قالت امينة :

ــ لاشيىء !

ــ كيف ورائحة الحريق تملأ البيت ؟!

قال على :

ــ لاشيىء ياأمى . كنا نحرق ورقه ، هذا كل مافى الأمر .

ــ ورقة ؟

تلعثما . توجست شمس واربكها ارتباك الاولاد .

ــ ولماذا تحرقانها ؟

تبادلا النظرات . قال على :

ــ نحرقها لأنها ممنوعة .

ــ هل هى مزورة ؟

ــ أمى هناك اوراق بها كلام فى السياسة . كلام تمنعه الحكومة ولو الحكومة وجدت هذا الكلام عند انسان فهى تدخله السجن فورا .

ــ أوراق تُدخل السجن ؟!

للحظة بدا لها انهما يستغفلانها . كادت تغضب . هل صدقا ؟ هل كان مابينهما هو فقط هذا الورق الذى فى السياسة ؟ هل دفعتهما دفعا الى الزواج ؟ ثم ماهو موضوع هذه الأوراق التى تودى بالانسان الى السجن ؟ وأى حكومة هذه التى تعاقب الانسان بالحبس على حيازة ورقة ؟ قضت ليلتها بلا نوم . فى اليوم

التالى قالت لعلى :

ــ أنا أمك . اجلس هنا امامى وفهمنى .

ولما تلعثم عاد اليها الوسواس . هل يسخران منها ؟

كررت :

ــ أريد ان افهم !

ــ اننا ضد الحكومة وهناك اوراق توضح لماذا نحن ضدها وتشرح رأينا للناس .

ــ وماذا فى ذلك ؟!

ــ فيه يا أمى ، فيه الكثير . أخذونا من الجامعة فى الفجر وحبسونا ... لماذا ؟

ــ لأنكم اختلفتم فى الرأى مع الحكومة .

ــ ولما نعلن رأينا فى ورق ايضا يسوقونا الى السجن . فهمت يا أمى ؟!

والآن صار القلق قلقين والخوف مضاعفا « احترسوا ياأولاد » ، « كونوا حذرين » ، « مع السلامة » تودعهما وكأنه هناك احتمال ان يمسكوا بهما فى الطريق . حين يتأخران قليلا يهبط قلبها وتقول حدث المكروه وتبقى فى الشرفة لاتتزحزح منها حتى تراهما قادمين . وكأن الحديث الذى دار بينهم قد جعلها جزءا من العمل الذى يقومان به .

ولما عادت بشرى من السفر حدثتها فى الأمر بصوت هامس كما يفعل على ، وكانت تتوقع أن تقول لها أن عليّا طائش ومخطىء وانها سوف تتحدث معه ، لكنها قالت :

— من يدرى يا أمى لعل طريقته هى الأصح !

فهل تتصل الخيوط لتتشابك ام لتتعقد ؟ والآن يريد على ان يكتب الكتاب « فكيف يا ابنى وانت بعد تلميذ وليس هناك سوى معاش المرحوم ومرتب بشرى . صحيح ان منيرة وعبد التواب ليسا غريبين ولكن الاصول اصول ، والمهر واجب ، والشبكة ايضا ، وامينة ابنتنا وواجب نقّدرها » وعلى يقابل كلامها بالمزاح ويضحك وهو يكرر مقطعا من أغنية « وأنا مالى ياامه انا عاوز عروسة » .

وذات صباح نزلت شمس الى محلات الاقمشة واشترت قطعتين من الحرير الابيض ، وفى نفس اليوم بدأت تفصل الثوبين ، ثوب بشرى وثوب امينة .

فــرح الأولاد

□ □ وقفت بشرى امام المرآة لتلقى نظرة اخيرة على هيئتها . فاجأها جمالها ولم يكن ذلك قد استوقفها ابدا . هل كانت فرحتها تنعكس اشراقا على وجهها ام انه الثوب الابيض الجديد وتصفيفة الشعر المُعتنى بها وزينة العروس ؟

قال طه انها اجمل امرأة رآها فى حياته فتورد وجهها ثم ضحكت وهى تجيبه بأن الحب اعمى . فنادى على شمس وسألها ان كانت رأت اجمل من هذه المرأة . وجاء على وقال انه لايتفق مع طه لأنه لم ير ابدا اجمل من نفسه وانه سيسرق الاضواء من الجميع هذه الليلة بما فى ذلك امينة لأنه وسيم وانيق وصغير السن وكالوردة !

ضحكت شمس حتى ملأت الدموع عينيها وشعرت بشيىء كأنه الفرح او الاعتداد . كان على وبشرى جميلين فعلا كوردتين فى أوج تفتحهما ، يأخذان القلب . وامينة ومديحة كانتا متألقتين تركضان هنا وهناك كأنه العيد . حتى طه بدا لها طيبا واليفا فهل انفتح له قلبها ؟

فى الصباح جاء الاعمام والاخوال ، حضروا عقدى القران وشربوا الشربات واكلوا الحلوى وانصرفوا . وفى المساء اقتصر الحفل على اهل الشقتين وكانت شمس ومنيرة قد اعدتا عشاء يليق بالمناسبة تناولوه ثم جلسوا على المقاعد والابسطة يثرثرون فى صخب .

قال طه لشمس :

ــ ياحماتى اريد حلة .

ــ حلة ؟!

ولكنه بدلا من ان يُفسر لها سؤاله قام الى المطبخ ، وأتى بآنية نحاسية كبيرة وبدأ ينقر عليها ويغنى ثم قطع الغناء وقال انه على احدى البنات ان تقوم وترقص لانه « ليس فرحا هذا الذى لايرقص فيه احد ! » .

طارت مديحة الى حجرة النوم واتت بطرحة . هددها ابوها بنظرة ناهية ولكنها ربطت ردفيها وبدأت تهز وسطها وهى تقول : « ان لم ارقص فى فرح بشرى وامينة وعلى فمتى ارقص اذن ؟! » رقصت ثم قال عبد التواب انه يكفى وذّكرت مديحة خالتها شمس بوعدها بأنها سترقص فى عُرس على . تمنعت شمس ثم قامت وهزت جذعها هزتين وجلست وقد اصبح وجهها احمر كالطربوش : « هاقد رقصت ، مبسوطة يامديحة ! » وفاجأت بشرى الجميع حين قالت انها سوف ترقص .

كانوا صاخبين ، يضحكون بصوت عال ويتحدثون فى نفس الوقت ويصفقون على « الواحدة ونص » يشارك بعضهم طه الغناء والبعض الآخر يطلق نكتة هنا وتعليقا هناك .

ولكنهم ، حين استغرقت بشرى فى الرقص ، بدأوا يتابعونها فى هدوء . كانت تتمايل بجذعها فى انسياب مدهش وتحرك ذراعيها وساقيها بقوة جذلة تلتقى مع غناء طه الذى راح يتدفق فى قوة وبطء .

علقت شمس قائلة انها لم تكن تعرف ان ابنتها بارعة فى الرقص الى هذا الحد . وقال على انه « المخدوع » لأنه عاش كل هذا العمر مع اخته دون ان يعرف انها راقصة عظيمة . وضحك طه وقال ان على « المخدوع » ان يصنع لهم شايا . وقامت مديحة التى كانت تتقافز كقطة صغيرة لتلتقط صورا « لطه وبشرى » و « على وامينة » ، « لخالتى شمس » « لأمى وابى » و «للشباب وحدهم » « للبنات وحدهم » ، « للكبار وحدهم » ثم قذفت بآلة التصوير الى سيد لكى يلتقط صورة « لنا كلنا » وصرخت منيرة ان آلة التصوير كانت ستنكسر وعلق عبد التواب ان مديحة هوجاء اكثر من سلمى « وربنا يستر ! » .

شربوا الشاى على عجل لكيلا يتأخروا . وسأل عبد التواب طه ان كان متأكدا من موعد قيامٓ القطار وابتسم طه وهو يقول انه متأكد لأنه ركبه قبل ذلك عشرات المرات ولأنه القطار الوحيد الذى يوصله الى « البلد » . وقال على بزهو انه وامينة لن يذهبا معهم لتوديع طه وبشرى فى محطة القطارات لأنهما سيخرجان .

ـــ إلى أين ؟

سأل عبد التواب

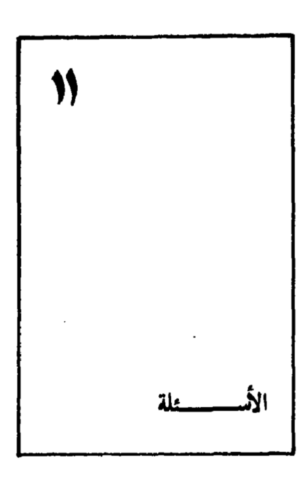
ـــ لاندرى بعد ، ربما الى مكان على شاطىء النيل او ملهى .

ـــ ولماذا لاتأتيان معنا ؟

ضحكت شمس وهى تقول لعبد التواب ان يوحّد الله فأمينة وعلى اصبحا زوجين على سنة الله ورسوله .

غادروا البيت وانفصل عنهم على وامينة بعد ان قبلا بشرى وطه وذكراهما ان « السلام امانة » لام طه واخوته فى البلد . وركب الباقون سيارتا اجرة حملتاهم عبر شارع القصر العينى ثم شارع رمسيس الى محطة مصر .

□□□



كثيرا ماكانت بشرى تفكر فى تلك الايام التى قضتها مع طه فى قريته وتتساءل ان كان المكان قد اسرها الى هذا الحد لصفة فيه ام الذى اسرها كان ذلك الفيض من المشاعر التى احيطت به .

كان الأطفال ، أطفال متشابهون فى الوجوه السمراء والعيون الحاضرة والاجساد النحيلة والاسمال التى تسترها ، قد احاطوا بسيارة الأجرة التى حملتهما من اسيوط الى القرية وقبل ان يُنزلا امتعتهما كان بعضهم قد ركض عبر الزقاق الضيق الذى يقود الى البيت ليُبشر .

وما ان دلفت من باب الدار وقبل ان تتبين ملامح المكان حتى اندفعت نحوها المرأة متهللة واحتوتها بين ذراعيها . وللحظة غابت بشرى فى صدر المرأة الكبيرة وثنيات ثوبها الريفى الأسود . لم تكن بحاجة لكى يقول أحد لها انها أم طه فقد عرفت ذلك للوهلة الاولى ، ليس من الصورة التى كانت تختلف ولكن بشىء كالغريزة والحدس .

وقالت نُوارة ، اخت طه ، وهى تضحك ان امها قلبت البيت وهى تنظف وترتب وتعد وتحضر وتقول لها « هدى بالك يا أم طه البيت صار كالمرآة » ولكنها تواصل العمل وتقول انه لو كان الأمر بيدها لأعادت طلاء البيت او حتى بنته من جديد .

قضت بشرى فى القرية اسبوعين فى النهار تروح وتجىء فى البيت الذى امتلأ بالأهل والزوار ، وتقول وتسمع وتتلمس وتختزن وفى الليل ، فقط فى الليل تختلى بطه ، يأتيها وتأتيه ، يتبادلان الوصل ، يتحدثان همسا ويمارسان الحب همسا ، يجمح العشق بينهما لحظة ثم يُلجمه الوعى بأن الآخرين نائمون فى الحجرة الملاصقة .

بعدها يأتى السكون ، سكون ضاف يغشى المكان وجسديهما . ويسكن اليها طه واضعا راسه على صدرها ويغفو وتبقى هى فى حضرة المشاهد والاسئلة غير قادرة على النوم . تستغرقها كل اللحظات الصغيرة التى مرت فى دقائق او فى غمضة عين . تفكر فى البؤس والذباب والحب والغبار وصرامة النساء ومعمار البيوت والجبل الأجرد الذى يشكل حدود المكان ، بيوت كالمعابد ، هندسة صارمة ، طوب نيىء ، مصفوف باقتدار ومطلى بالطين ، جدران صماء تخلو الا من طاقات صغيرة . بيوت كالقلاع تتصل ابنيتها عبر الاسطح كأديرة مقفلة فى وجه الزمن والاغراب . شوارع وأزقة لاتلتوى بل تنحرف فجأة فى خطوط

مستقيمة دائما . فما الذى تقوله البيوت ؟ وما الذى تعنيه الازقة ؟ ويبدو لبشرى وهى مستلقية على ظهرها تحدق فى الظلام انها لو احسنت الانصات لسمعت شيئا من اجابة .. فكيف ؟

والنساء كالبيوت . هنا لاتخرج النساء حاسرات الرؤوس ، ولا يجلسن على عتبات الدور ، ولا يسرن فى الشوارع فُرادى . نساء متسربلات بالاسود ، اشكال هرمية سوداء صغيرة تغمر الاجساد التى لايظهر منها سوى اقدام تغطيها جوارب سميكة من القطن الاسود واحذية سوداء رخيصة يعلوها التراب . نساء حنطيات وبنات يخلعن الاسود فى البيوت ليغربلن القمح ويطحنه ويعجنه ويكورنه ويرققنه ويسوينه فى النار . نساء صغيرات كأشجار الكمثرى والرمان تثقل فروعهن الدقيقة كثرة الثمار ، نحيلات حتى وهن يحملن ، يضربهن ازواجهن ، وتزجرهن امهات صارمات كالمعابد يتقن الحياة وطقوس الحداد . نساء تفوح من ثيابهن رائحة الحليب . فما الذى تقوله النساء ؟

وصغار فى المدارس ، وصغار فى الأزقة ، وصغار فى الحقول . أعواد نحيلة دائما وعيون سوداء او بنية او عسلية او خضراء تتطلع حاضرة رغم الذباب فما الذى تقوله عيون الصغار ؟ .

ثم يسرقها النوم من الاسئلة فترى حماما يملؤه بخار الماء الساخن وصبية عراة يفركون اجسادهم بالليف والصابون ويضحكون والماء الساخن ينسكب متصلا وغزيرا على رؤوسهم يجففون اجسادهم بالمناشف الملونة ويظل شعرهم يقطر ماء .

ثم ترى ورقة بيضاء كبيرة بيد طفل يرسم عليها :

ــ ماالذى ترسمه ياولد ؟

تسأل وهو لايجيبها .

ـــ ماذا سترسم ؟

تلح .. ولكنه يبقى مستغرقا فى عمله دون ان يلتفت اليها وعندما ينتهى يأخذ لوحته ويذهب . فتركض وراءه ولا تستطيع اللحاق به . ترى ماالذى يرسمه الولد ؟ تسأل نفسها وتكتشف انه كان حلما فتقوم وتغسل وجهها وتبدأ يوما آخر .

وتظل تسترجع تلك الزيارة الى بيت ام خالد التى استقبلتهم مهللة ، وبكت وهى تودعهم بالباب . تخيلتها دائما امرأة كبيرة ، فارعة الطول ، ومسنة فوجدتها على العكس من ذلك تماما : نحيلة وصغيرة ، رغم ضفيرتيها الفضيتين ، تتحرك بسرعة ونشاط ملفت .

جلسوا فى حجرة الضيوف حيث الكنبتان المتقابلتان الى يسار الداخل ويمينه وحيث صورة خالد على الحائط المواجه للباب ، نفس الصورة التى صارت تألف تفاصيلها : الوجه المستدير والعينان المشرقتان والشارب الخفيف الذى لايبدو لأول وهلة بجوار الصورة وفى اطار خشبى مماثل له لوح زجاجى كانت « شهادة استحقاق عسكرى للشهيد خالد عبد الله الانصارى » مكتوبة بخط عربى مزخرف .

تحدثوا طويلا ، وأكلوا وشربوا الشاى وعندما ارادوا الانصراف استبقتهم ام خالد فبقوا . وعندما قاموا بعد ذلك لكى يغادروا البيت احتضنت بشرى ثم صافحت طه وأبقت كفه فى كفها وهى تكرر ان النهار مرّ وكأنه غمضة عين ، وبكت .

□□□

١٢

مقهى دافىء وجيد الانارة

فاجأها الظلام كشىء غير متوقع بل وصارم . حين جاءت الى عملها فى الثامنة صباحا كانت السماء ملبدة بالغيوم والوقت كأنه السحر والآن اذ تخرج الى الشارع تجد الليل ساجيا ومستتبا . « يمر النهار دون ان المحه ! » قالت لنفسها بسخط . لن تذهب الآن الى البيت . غذّت السير فى اتجاه محطة المترو ، نزلت . على الرصيف وقفت تحدق فى النفق المظلم حتى رأت بقعة الضوء تكبر ثم ظهر القطار وحاذى الرصيف وتوقف . ركبت وبعد محطتين نزلت . سارت فى اتجاه السلم الكهربائى وتركت له نفسها ليصعد بها . حدقت فى الوجوه المقابلة لها على سلم الهبوط . وجوه تتباين ملامحها وتشترك فى التحديق فى اللاشيء

الذى امامها . لفح الهواء البارد وجهها وعنقها فأحكمت معطفها حول جسدها ، ودست يديها فى جيبها . خرجت الى الشارع وسارت باتجاه كشك الجرائد الذى لم يكن قد اغلق بعد ان ابتاعت منه جرائد عربية وانجليزية ودسّتها فى حقيبتها وواصلت .

تحب هذا الشارع الذى لاتدخله السيارات ويمشى فيه الناس على هواهم ببطء او مهرولين ليقضوا حاجة فى الشراء او المشاهدة او قطع الوقت . وتؤنسها المحلات التجارية الكثيرة التى تتلألأ واجهاتها بالأضواء المركزة على الملبوسات والمأكولات المعروضة بذوق رفيع . ومازالت الحوانيت ومحال الحلوى والمقاهى مفتوحة .

على بعد خطوات من سلم المترو كان شاب يلبس « بانشو »* أسود يعزف أغانى بالأسبانية يحيط به الناس ويضعون بعض القروش فى قبعة مقلوبة وضعها بالقرب منه . كان للشاب عينان ضيقتان وشعر اسود طويل ناعم ووجه حلو القسمات . وكان صوته دافئا ومؤثرا وبدا لسلمى التى لاتفهم الأسبانية أن كلمات الأغنية حزينة . وضعت قروشا فى القبعة وسارت .

بعد دقائق استوقفها مشهد امرأتين يحيط بهما عدد من المارة . كانت احداهما تغنى والاخرى تصاحبها على الجيتار الذى تستبدل به بين حين وآخر مزمارا وكانت المغنية حبلى يبدو تكور بطنها رغم ثوبها الفضفاض ولم تكن تلبس معطفا بل تحيط كتفيها بشال صوفى ازرق . أما المرأة العازفة فكانت تلبس بنطلونا كحليا وبلوفرا فى لون النبيذ . الأولى تلم شعرها الطويل بشريط رفيع داكن « تشبه بشرى » قالت سلمى لنفسها . والثانية لها ايضا شعر طويل ضفرته فى جديلتين .

* عباءة شعبية يلبسها أهالى أمريكا اللاتينية .

كان شكل المرأتين وسط المحال التى تعرض آخر الموضات فى ملابس الرجال والنساء يبدو خارج السياق متميزا عنه . المغنية الحبلى لها وجه جميل وصوت دافىء وباللحن نعومة ملفتة .

ودت سلمى لو تفهم الكلمات . التفتت الى شاب يقف بجوارها . سألته بالانجليزية فسألها :

ــ ألا تتحدثين الالمانية ؟

ــ لا ولكنك تتحدث الانجليزية أليس كذلك ؟

ــ لا أتقنها !

ــ هل كانت المرأة تغنى شعرا ؟

ــ نعم ، نعم ، شعر جميل جدا .

ــ وماذا كانت تقول ؟

كان الشاب اطول منها قليلا ، عريض المنكبين قوى البنية وان لم يكن بدينا وله وجه عريض وعينان زرقاوان . وكان يصفف شعره الاشقر الناعم بحيث يخفى بدايات لصلع .

بدأت المرأتان فى مقطوعة جديدة . فتح الشاب عينيه واسعتين وضم

شفتيه واضعا يده امام فمه مشيرا لضرورة الصمت .

كادت سلمى تذهب ثم عدلت مسلمة نفسها لمشهد المرأتين الواقفتين فى برد ديسمبر القارص تثيران فى الناس الدفء والنعومة .

حين انتهيتا وضع الشاب قطعة فضية فى منديلهما المفروش على الأرض وحذت سلمى حذوه . قال وهو يسير بجوارها :

ـــ أخشى ترجمة كلمات الاغنية فهى جميلة جدا وقد افسد كل شيء .

قالت سلمى وهى تبتسم :

ـــ شكرا على اى حال ... سأعود الآن الى البيت . لو بقيت فى الشارع دقائق أخرى فسأتجمد !

عرض الشاب ان يدخلا الى مقهى قريب ثم هو يخلع لفحته الصوفية ويضحك :

ـــ لو لم تمانع تقاليد الشرق !

أحاط عنقها بلفحته ولفها مرتين واحكمها . قام بذلك ببساطة وتلقائية .

ـــ ندخل المقهى ؟

ـــ ندخل !

فى ضوء المقهى لاحظت سلمى انه اصغر مما تصورت . ربما كان فى الثامنة والعشرين .

قال :

ـــ اسمى يان . وأنت ؟

ـــ سلمى .

ابتسم وهو يكرر الكلمة ببطء ويقسمها الى مقطعين :

ـــ سا .. لما .. من أى بلد ؟

ـــ من مصر .

جاءت النادلة فسألها ماذا تشرب ، فقالت انها تشعر بالبرد وتريد شايا .

ـــ شاى بالروم ، مارأيك ؟

ثم التفت الى النادلة وطلب اثنين واستغربت سلمى قبولها الجلوس مع هذا الشاب حتى قبل ان تعرف اسمه . ربما كانت بساطته الشديدة هى التى اشعرتها بالألفة ، ولم يخب ظنها . كان لطيفا وشديد التهذيب . حدثها عن نفسه قال أن أباه وأمه يمتلكان فندقا صغيرا جدا فى قرية جبلية وانه ابنهما الوحيد وانه يعمل باحثا كيمائيا ويسكن الآن العاصمة . ثم ختم حديثه بضحكة بدت مفاجئة فى صخبها :

ــ وأنا طيب القلب ولم ار فى حياتى اجمل من المصريات وأنت ؟

قالت سلمى وقد سرت اليها عدوى المرح انهـا توافقـه تماما ، ضحكت وضحك وطلبا كوبين آخرين من الشاى بالروم . وحكت له سلمى عن نفسها وعملها فى فيينا ، ثم غادرا المقهى ونزلا معا الى المترو وقبل ان يفترقا أرادت ان تعيد له لفحته الصوفيه ولكنه ابتسم وقال :

ــ أرجو أن تقبليها .. وهذا يعطينى مبررا معقولا جدا لكى اراك مرة ثانية .

ثم اكتست ملامحه بالجدية وهو يؤكد لها انه يمزح وان بامكانها اعتبار اللفحة هدية صغيرة واتى القطار وركبت ورأته وهو يقف على الرصيف يلوح لها بيده .

حِـداد

عادت سلمى من عملها لتجد رسالة فى انتظارها « لابد انها من خالتى شمس » قالت وهى تمد يدها داخل صندوق البريد . أخذتها وصعدت وما أن أغلقت الباب وراءها حتى فضتها . كانت من سيد يخبرها بوفاة والدها . فاجأها الخبر الى حد الصدمة ولم تكن قد فكرت فى احتمال حدوث ذلك أبدا . أعادت قراءة الرسالة . لماذا لم يبرقوا لها ؟ سيد يقول انها ازمة قلبية اصابته فى الصباح وانه مات قبل الظهر وانه يكتب لها بعد يومين من الحادث . نظرت الى تاريخ الرسالة كانت مكتوبة قبل ثمانية أيام . أبوها اذن مات قبل عشرة ايام وهى لاتعرف .

مات وهى تسير فى الشوارع تحدق فى الورود وتتساءل عن أسماء الشجر ونوع الثمار . فماذا تفعل الآن ؟ البيت يطبق على صدرها وفى حلقها غصة .. قررت النزول من البيت . ولم يكن لديها ثوب اسود « وكل المحلات التجارية مغلقة الآن فهل انزل بثوب ملون الى الطريق ؟ » .

ولكنها نزلت . وسارت لاتقصد مكانا وبها رغبة فى الانتحاب لو ان لها فى هذه المدينة اصدقاء تذهب اليهم .. لا أحد .. غدا صباحا سوف تذهب الى مكتب الطيران وتشترى تذكرة سفر الى القاهرة .. غدا تسافر لو امكن . دخلت الى أحد المقاهى واختارت لها ركنا قصيا . أمسكت بفوطة ورقية من الفوط التى على المائدة وأخرجت قلما من حقيبتها . احتاج ثوبين اسودين وحذاء اسود وحقيبة سوداء ، كتبت سعرا تقريبيا لكل واحد منها اضافت سعر التذكرة ذهابا وعودة ، جمعتهم ، لم يكن معها مايكفى . جاء النادل . فطلبت منه شايا . اذن لابد من الانتظار حتى تقبض راتبها بعد عشرة ايام . دمعت عيناها والحت عليها الرغبة فى النشيج . مسحت دموعها .. كان يجب ان تبقى فى البيت لكى تبكى كما تريد .. قالت لنفسها .. أى منظر هذا .. تنتحب امام الاغراب فى مقهى عام ! البيت يطبق على انفاسها والبكاء هكذا فى الشوارع يشعرها بالعُرى . تركت ثمن الشاى على المائدة وخرجت الى الطريق .

لو أن لها اصدقاء تذهب اليهم وأمامها السبت والاحد حيث لازملاء ولا عمل فأين تذهب . ظلت تمشى فى الطرقات حتى أحست بقدميها تؤلمانها . ركبت المترو وعادت الى البيت .

قبل أن تنام استعادت لأول مرة منذ سفرها وجه ابيها وهو يودعها فى المطار فسالت دموعها فى صمت على وجنتيها ثم نشجت وانتحبت واعولت ولم تنتبه متى كفت عن ذلك وراحت فى النوم .

كأنه جرس دق فأيقظها . فتحت عينيها ونظرت الى ساعتها كانت تشير الى الخامسة الا ربعـــــا . أزاحت الستارة « لن تشرق الشمس قبل ساعة » صنعت لنفسها شايا وجلست تحتسيه وتبكى وتنتظر . رأت شروق الشمس ثم ملأ الضوء الحجرة وهى جالسة فى مكانها ويدها على خدها . ولما اقتربت الساعة من الثامنة قامت وغسلت وجهها وارتدت ملابسها ونزلت . اتجهت الى احد المحال التجارية الكبيرة . وصلته قبل ان يفتح ابوابه . انتظرت ، ولما فتح دخلته واشترت ثوبين اسودين ـــ لبست أحدهما ـــ وحذاء وحقيبة استبدلتهما بحذائها وحقيبتها ووضعت الملابس التى جاءت بها مع الثوب الجديد فى كيس نايلون كبير حملته واتجهت الى باب الخروج . لمحت نفسها بملابس الحداد فى احدى المرايا المتعددة فى المكان .. تمتمت بارتياح ان ذلك ، على الاقل ، مناسب . ما أن غادرت المحل حتى وقفت فى الطريق تتساءل : « الآن الى اين ؟ » .

فكرت فى الشاب المصرى الذى يعمل فى مطعم هامبورجر والذى حياها بحماس عندما عرف انها مصرية . حاولت ان تتذكر المحل ولم تفلح . قررت ان تمر على محلين او ثلاثة وتسأل . دخلت واحدا ثم وقفت حائرة لاتدرى من تسأل .. كان هناك شباب اجانب يقفون خلف العارضة الخشبية يقلون اقراص الهامبورجر واصابع البطاطس ويصنعون الساندويتشات ويضعونها على اطباق او فى اكياس ورقية ويسلمونها للشارين . « ليس بينهم مصرى » بدا لها ذلك واضحا . مرت بأربعة اماكن مماثلة وسألت الجالس على الآلة الحاسبة ان كان هناك شاب مصرى يعمل معهم . وكانت الاجابة دائما بالنفى : أحست سلمى فجأة بسخف ماتقوم به : تبحث عن هذا الولد كأنه أخوها الذى اضاعته مع انها لاتعرف عنه اى شيى ولا حتى اسمه .

عادت الى البيت ضيقة بنفسها وبالصداع الذى اخذ يشتد عليها . تذكرت انها لم تأكل شيئا منذ غذاء اليوم السابق . أعدت لنفسها شريحتى خبز

بالجبن وصنعت كوب شاى واكلت ثم ابتلعت قرصى مسكن لآلام الرأس .
بعدها جلست تنتظر .. استغربت لذلك وتساءلت : ما الذى تنتظره ؟ .
فكرت ربما ان ينقضى النهار .

لم تكن تريد ان تفكر فى ابيها وهو مسجى شمعى اللون على فراش الموت ولا فى عويل اهلها وصوت مقرىء القرآن فى البيت « سأنزل الى الشارع » قبل ان تفعل أخذت معها رقم تليفون ذلك الشاب النمسوى الذى التقته يوما فى الطريق واستمعت معه الى غناء المرأة الحبلى وعزف رفيقتها . توقفت عند اول كشك تليفون وادارت القرص .. « لا أحد يرد ! » حاولت مرة اخرى ... « انها ليلة السبت فما الذى يبقيه فى المنزل ! » وضعت السماعة وسارت باتجاه البيت وكانت تفكر ان امامها فى الغد يوما طويلا هو الاحد وانها لاتعرف كيف ستقضيه .

□□□

١٣

شمس
تنتظر ساعى
البريد وتكتب الرسائل

كانت شمس وهى تتأمل الصو ر التى التقطت فى تلك الليلة وترى جمال الأولاد تقول لنفسها ان الانسان لايشعر بالنعمة وهى بين يديه وعندما تزول يراها واضحة كالنهار . الآن فقط بعد مرور سنوات تعرف كم كانت هذه الليلة ليلة العمر بحق .. كان الأولاد من حولها يهبونها حرارة وامتلاء كدجاجة ترقد على بيضها ، ثم تفرقوا كأن يدا حاسدة قبضت عليهم وبعثرتهم فى الدنيا .

سلمى كانت اول من فتح باب السفر ، ذهبت رغم الاعتراضات والتحفظات والنصائح . الأولاد يحكمون رايهم ثم يدفعون الثمن وندفعه نحن ايضا

معهم رغم اننا لم نختر ماإختاروه بل كنا نعارضه .

لم تكن تريد ابدا هذا الزواج المبكر لعلى ، تلميذ فى الجامعة لم ينبت له شارب بعد ، ويقول أتزوج . وافقت على كتب الكتاب فعاد يُلِّح :

— ما الفرق ، ما الفرق ياأمى بين ان تعيش امينة فى شقة اهلها وان تنتقل للاقامة معنا ، ما الفرق الا ان نسعد انا وهى بحياتنا معا .

— ياعلى لم تكمل عامك الواحد والعشرين ولم تتخرج بعد فى الجامعة .

— سأبلغه بعد شهر وسأتخرج بعد شهرين .

— عمك عبد التواب لن يوافق .

— ولو وافق ؟

— لن يوافق ، هذا مؤكد !

— ولو وافق ؟

« ما الفرق يا أمى ، ما الفرق ؟ » تسمع كلماته كأنما نطق بها بالأمس فتعلو شفتيها ابتسامة متعبة . الفرق الأولاد ياعلى .. الأولاد الذين جاءوا بسرعة مدهشة .

« جاءك ولد ياعلى ، نسميه أحمد كأبيك » . ويصبح احمد الوليد شغل البيت وشاغله : « أحمد جائع » ، « أحمد شبعان » ، « أحمد بلل

ملابسه » ، « الولد عنده اسهال » ، « الولد عنده حرارة » ، « الولد يبكى » ، « الولد يبتسم » . يتحلقون حوله يطعمونه ويحمونه ويلاعبونه ويدللونه ويخدمونه وينشغلون بأكله وشربه وأقمطته ولون برازه .

ولم يكن أحمد قد نبتت له سوى سنتين صغيرتين فى فكه الاسفل عندما تيقنت امينة انها حبلى . ثم وضعت مجدى . وصار احمد ابن العام ونصف الذى يتبول فى ملابسه ولا يعرف من كلمات اللغة سوى ثلاث كلمات هو « الكبير » ومجدى هو « الصغير » . بعدها جاءت جميلة « خطأ » قالت امينة وراحت تُهون الامر على نفسها بأنها ستتعب مرة واحدة وتربى ثلاثتهم معا .

وامتلأ البيت مرة اخرى بالصغار وعادت الاقمطة البيضاء والملابس الصغيرة تغطى حبال الغسيل المشدودة على الشرفة . وشمس موزعة بين الفرحة بالأحفاد وقلقها على امينة وعلى . كانت الآن تعرف انهما حين يتهامسان فى غفلة منها لايناقشان امور السياسة ولا يتدبران امر ورقة ممنوعة بل يفكران فى كيفية الايفاء بالتزامات الاسرة . لكن الهمس ذات ليلة تحول الى صياح :

ــ اخفضوا صوتكم ، ستوقظوا الاولاد ... ماذا جرى ؟

ــ إسأليها !

ــ إسأليه !

كانا منهكين قلقين لايعرفان ما العمل . على يخرج فى الصباح ولا يعود الا بعد المغرب ، ويعمل فى وظيفتين . وأمينة تقول انها تعبت من البيت وحياة البيت ، والاطفال ورعاية الاطفال . حتى كان ذلك اليوم الذى جاء فيه طه

وبشرى لتناول الغـــداء معهـــم . ولاحـــظت شمس ان على نادى بشرى واختـــلى بها ثم عاد وجلس بجوارها وبدا مرتبكا .. ثم قال :

ــ أمى ، لقد قررت ان اسافر .

ــ تسافر ؟

ــ لن أحكى لك عن وضعنا المالى فأنت تدرين عنه اكثر مما ندرى . أمى ، مرتبى بالكاد يكفى ثمن حليب الأطفال وزيارة واحدة للطبيب . والديون تتراكم ... وهناك عمل معروض على فى الخليج .

وقفت كلمات على كالغصة فى حلقها . خنقتها الكلمات .

ــ ولا أراك الا مرة كل عدة سنوات كما حدث مع سلمى !

ولكنها شعرت بالندم على ماقالته فما الذى بيد الولد كى يفعله ؟ . مدت يديها وامسكت بيديه . قالت :

ــ ربنا يسهلها لك ياعلى . قلبى راضٍ عليك . سافر ياحبيبى ولاتحمل هما وأمينة والصغار فى عينى .

وعندما سافر بكت طويلا وكلما آوت الى فراشها انسالت الدموع من عينيها غزيرة ، فى صمت دائما حتى لايسمعها احد . ولكنها حين ودعت امينة والصغار فى المطار ليلحقوا به بعد شهور لم تستطع ضبط نفسها فانتحبت وعلا نشيجها . كان قاسيا ان يذهب على وزوجته واولاده

ولم يكن مجرد حزن ذلك الذى ملأها ، كانت تلعن ابو الزمن الذى يملى هذه الغربة وتلعن ابو النقود التى تحول دون ان تقطع تذكرة سفر لمصاحبة هذه المسكينة امينة التى راحت تتعثر بأطفالها الثلاثة وهى تؤكد على احمد ان يظل ممسكا بيد اخيه والا ضاع . كانت شمس تلعن ابو الزمن وهى تلوح لهم بيدها مودعة وتراهم عبر دموعها يبتعدون .

لماذا خلق الله الانسان هكذا لايقدر النعمة الا بعد زوالها ؟ كانت تشكو من تعب الصغار فذهب الصغار ولم يبق لها سوى ان تجلس هكذا تقلب فى الصور وتنتظر ساعى البريد ويوم الجمعة الذى يأتى فيه طه وبشرى لزيارتها وتناول الغداء معها . عندما سافرت امينة مع الصغار اقترحت عليها بشرى ان تنتقل للاقامة معهما ولكنها رفضت وقالت انه ليس بعد هذا العمر تترك بيتها « أنتما اصغر واخف فلماذا لاتأتيان للاقامة معى ؟ » ولكن طه رفض ولم تلح فلكل ان ينام على الجنب الذى يريحه . طه طيب القلب وعطوف ولكنه عصبى المزاج لايعرف المرء ما الذى يشغله . الشغل يشغله .. ولكن لماذا يعمل الى هذا الحد مادام يقبض نفس المرتب ؟ صعب فهم هذا الولد ... ولكنه طيب وهى تحمل همه كأنه على .

ويوم قام العمال بالمظاهرات والقى القبض عليه بقى محبوسا شهرا كاملا ولما خرج قالت له ان عليه ان يكون اكثر حرصا لانه ليس تلميذا كما كان على يوم أمسكوه مع التلاميذ فى الجامعة وانه يفتح بيتا وسوف يصبح ابا وأن هذه مسئولية .

ولكن طه فاجأها بقوله :

— ياحماتى ، لماذا لم تتزوجى بعد موت المرحوم ؟

— وهل هذا ياطه سؤال ، عيب !

— ماقصدت ان اقوله هو ان كل انسان شريف يظل مخلصا وفيا لشيىء ما يرى انه اساسى جدا فى حياته . بالنسبة لك كان المرحوم هو زوجك وأبو الأولاد ورغم انه مات وانت بنت ٢٣ سنة لم تفكرى فى الزواج من بعده .

— وأنت لما تدخل السجن تكون مخلصا لمن ؟!

— ليس السجن هو المسألة ، انما هى الايمان بأشياء والتمسك بهذا الايمان حتى ولو كان ثمن ذلك هو السجن او ماهو اصعب من السجن .

قال كلاما كثيرا فهمت شمس بعضه ولم تفهم بعضه الآخر . تكلم عن الوفاء لأهله ومن هم فى وضع اهله ولصديقه خالد الذى قتله الاسرائيليون فى الحرب وقال ان الاصيل يصون ذكرى أخيه ومن لايفعل يجعل من موت اخيه موتين . ورغم انها تأثرت وقالت له « عداك العيب ياطه » الا انها شعرت انه عنيد اكثر من على واحست بالخوف فما الذى يحدث لو ورّط هذا الولد نفسه فى المشاكل فتجد بشرى نفسها وحيدة تربى الصغار ؟ هاهى بشرى حامل ، من يدرى لعله يهدأ ويعقل حين يأتيه الولد .

جمعت شمس الصور واعادتها الى الصندوق المعدنى الملون الذى تحتفظ بها فيه . غسلت وجهها وغيرت ملابسها وحملت سلتها ونزلت الى السوق .

بشرى وطه يحبان البامية وورق العنب ، وسوف تصنع لهما ايضا صينية كنافة . ستشترى الآن كل مايلزمها وغدا تقمع البامية وتلف الورق ، وتصنع الكنافة يوم الجمعة صباحا فيكون كل شيىء جاهزا ومعدا وتتفرغ هى للجلوس

معهما حين يأتيان .

وكانت شمس وهى عائدة من السوق الى البيت تفكر انها قد احضرت كل ما تحتاجه ولم يبق سوى الخبز الذى سوف تشتريه فى حينه . وما ان تجاوزت البوابة الحديدية للبيت حتى سمعت صراخ المرأة الاجنبية فعرفت ان مشاجرة جديدة دبت بين منيرة وزوجة سيد . هرولت الى شقتها ووضعت السلة ثم عادت فنزلت الى شقة الجيران . طرقت الباب فلم يفتح احد ثم عادت فطرقت بشكل متصل حتى فتحت لها كريستينا وكان وجهها محتقنا . ألقت شمس عليها السلام ولكنها لم تجب ودخلت الى غرفتها وطرقت الباب بعنف وراءها .

وجدت شمس منيرة تنتحب وعندما هدأت بعض الشيىء قالت لها ان كريستينا استيقظت عكرة المزاج وانها راحت تسب سيد واليوم الذى تزوجته فيه . « ولما قلت لها ان هذا لايصح وان عليها ان تحترم وجودى ، بدت كالثمرة الهائجة وبدأت تشتمنى بأقذر الشتائم » تطلعت منيرة الى شمس فجأة كطفل مندهش : « ولكن ياشمس من اين تعلمت هذه المرأة كل هذه الشتائم الفظيعة . انها تكاد لاتعرف العربية ! » وعادت تنشج وتلعن الزمن الذى أذلها بعد موت عبد التواب « والأولاد كقلتهم ياشمس .. كقلتهم تماما ! » وشمس تهدئها وتهون عليها وتطلب منها التوقف عن البكاء وعيناها هى نفسها مغرورقتان بالدموع . ثم دعتها للصعود معها « وعندما يأتى سيد فى المساء نتحدث معه ونرى لهذه المشكلة حلا » .

صعدتا معا . وتناولتا غداءهما معا وشربتا قهوتهما وتجاذبتا اطراف الحديث ولكن الوقت كان يمضى بطيئا فى انتظار عودة سيد . ولما جاء بدأت منيرة تبكى من جديد وقالت له شمس ان هذه الحال لايمكن ان تدوم وانه ، ان كان يرغب فى الاقامة مع امه ، أن يؤدب زوجته . كلمته شمس بصرامة كأنها شمس الاولى التى

تزجر الصغار وتوبخهم وتأمرهم وتنهيهم وابتسم سيد ابتسامة اقلقتها وقال انه بعد قليل سيحضر كريستينا لتعتذر لأمه وينتهى الموضوع ..

فتحت شمس التليفزيون وجلست مع منيرة لمشاهدة المسلسلات ثم قامت وأعدت « لقمة » للعشاء ثم صنعت شايا . ولما تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولم يأت سيد قالت لمنيرة : « قومى لننام » ولاحظت ان وجه جارتها كان شاحبا .

« هل صحيح ان الاولاد كقلتهم ؟ » تساءلت شمس وهى تتقلب فى سريرها غير قادرة على النوم . لم تصدق طه يوم قال لها ان سيد « وسخ » وانه يقوم بأعمال مشبوهة . قالت لطه ان بعض الظن اثم ولكنها كانت تعرف ان سيد له دخل كبير رغم انه تخرج من الجامعة فى نفس السنة مع على ، وانه اشترى سيارة جديدة فاخرة وانه يسافر كثيرا ولا أحد يعرف الى اين . قال لأمه انه يشتغل بالتجارة فصدقته . هى ايضا صدقته وكذبت طه . ثم اتى بهذه المرأة طول فى عرض وشقراء وجميلة ولكن كل هذه البذاءة والشراسة ، ألم يكن لها أم تربيها ؟! الله وحده يعلم من أين اتى بها سيد « استغفر الله العظيم » تمتمت شمس . ولكن هذا الكلب سيد لايصعد ليجبر خاطر امه . نفرض ان كريستينا رفضت الاعتذار لحماتها الا يأتى هو لمراضاتها ؟!

ولم يأت سيد لا تلك الليل ولا الليالى التالية . وكان رأى شمس الذى نقلته لمنيرة ان تنزل وتدق الباب وتقول لسيد وزوجته ان البيت بيتها وان كانا يريدان احترامه واحترام وجودها فيه فليبقيا وان كانا لايريدان فليذهبا ولكن منيرة بكت بحرقة وقالت ان عبد التواب مات وسيد مات والبنات كل واحدة فى حالها وغربتها وانه ملعون ابو الشقة والذى يريدها . واقترحت عليها شمس ان تبقى للاقامة معها وألحت ولكن منيرة قالت انها فكرت فى الامر وقررت ان تذهب للاقامة عند

اخوتها فى المنصورة :

ــ عندك ورق ومظاريف ؟

ــ عندى .

ــ وورق كربون ، الورق الاسود الذى يطبع نسخا .

ــ لا .

ــ سأذهب لشراء ورق كربون .

ونزلت منيرة فى الحال قبل ان تشرح لشمس المندهشة معنى طلبها ثم عادت وهى تحمل ورقتى كربون ودفتر رسائل ومظاريف .

ــ قلت ان الورق والمظاريف التى عندك قد لاتكفى واشتريت ايضا طوابع بريد . جلست منيرة تملى على شمس رسائل للبنات ولأخوتها فى المنصورة .

ــ اريدك ان تكتبى رسالة من ثلاث نسخ للبنات ، واحدة لسلمى ، وواحدة لأمينة ، وواحدة لمديحة . وأملتها منيرة خطابا طويلا نقلت فيه للبنات كل ماجرى منذ أن أتى سعيد « بالخواجاية » هكذا فجأة وبلا مقدمات وقال : « هذه زوجتى ياماما وسوف تقيم معنا » وحتى ماشاهدته شمس بعينيها مرورا بنجوم الظهر التى أرتها لها المرأة فى الشهور الستة التى اقامتهم معها . وأخبرتهم بقرارها بالاقامة فى المنصورة وطلبت منهن ان يكتبن لها على عنوان اخيها الاكبر عبد العال .

ثم أملتها خطابا آخر الى اخيها الحاج عبد العال تحكى له فيه ماجرى وتطلب منه ان يجمع اخوته الستة ويقرأ كلامها عليهم . واملت : « وسأصل عندكم يوم الخميس فى قطار الساعة الرابعة » وطلبت من شمس ان تضع خطا تحت هذه الجملة وان تكتب بعد ذلك انها ترسل سلامها الى زوجة الحاج واولاده وزوجات الاخوة الآخرين وأولادهم . وذكرتهم بالواحد والواحدة لشمس التى كتبت أسماءهم فى صفحة كاملة .

١٤

تحيـــة العلـــم

استيقظت بشرى كعادتها مبكرة . كادت توقظ طه ثم عدلت . « سأذهب اليه فى عمله » . غسلت وجهها وغيرت ملابسها وافطرت ونزلت الى المدرسة .

دق الجرس واصطفت البنات ثم ظهرت الناظرة فى الشرفة المطلة على الساحة فانتظمت الصفوف تماما وكف اللغط . تقدمت ثلاث طالبات فى خطى منتظمة باتجاه العلم ، واحدة تسبق الاثنتين الأخريين قليلا . وقفن تحت السارية العالية ورفعن الاكف بالتحية وهتفت البنت الاولى بصوت واضح

وجهورى : « تحيا جمهورية مصر العربية » ، أعادتها ثلاثا ، وفى كل مرة رددتها من ورائها بنات المدرسة المشرئبات بأعناقهن يتطلعن الى العلم العالى المرفرف فى هواء ذلك الصباح الشتائى .

وكما فى كل صباح نفذت تحية العلم الى كل البيوت المجاورة . مرت عبر السواتر الخشبية للنوافذ المغلقة وعبر الابواب المقفلة منذ الليل بالمفاتيح والترابيس ، سمعها بائع الفول الواقف على ناصية الشارع والمرأة التى تصنع الشاى لعمال المنطقة كما سمعها بعض الذين لم يغادروا أسرتهم بعد مستمتعين بدفء الأغطية .

ثم علا عبر الميكرفون صوت الطالبات وهن يرددن النشيد الوطنى . وانتشر الصوت فى فضاء الحى ، ابتلع ضوضاء الشارع الصباحى بمزامير سياراته وحديث العابرين ونداء الباعة .

أشرفت بشرى على دخول طالباتها الى الفصل ثم دخلت . وكانت كل طالبة الآن تقف بجوار مقعدها . قالت « صباح الخير » فرددن التحية ثم جلسن . بدأت الدرس . ولما انتهت منه فكرت ان امامها ساعة قبل ان تبدأ درسها الثانى « سأمر بمكتب الناظرة » سارت فى الممر الطويل الذى تفتح عليه ابواب الفصول ولما وصلت الى السلم نزلت طابقين ثم دارت الى اليمين وطرقت بابا ودخلت . كانت « الست هدى » تجلس وراء مكتبها الكبير المواجه للباب . رفعت عينيها فرأت بشرى . قامت لتلتقى بها فى منتصف الغرفة الفسيحة وهى تمد لها كلتا يديها لمصافحتها :

ـــ قبل لحظات فقط كنت افكر لماذا لم تأت بشرى .. كيف حال طه ؟

ـــ يسلم عليك وعلى الدكتور ويعمل كثيرا وكلما رأته امى توبخنى وتقول : يابشرى انت لاتطعمين زوجك وهذا واضح !

ابتسمت الست هدى وهى تدعو بشرى للجلوس بجانبها على الاريكة الجلدية الكبيرة وكررت :

ـــ هل طه بخير ؟

ـــ بخير الحمد لله .

ـــ بلغيه سلامى وقولى له ان الدكتور يرغب فى رؤيته .

وكانت الناظرة تشير الى زوجها دائما بكلمة « الدكتور » وكان طبيبا مقعدا يقارب الثمانين ويقضى يومه فى قراءة الجرائد والتعليق على ماورد فيها .

ـــ قولى له ايضا انه متبنىء خطير .. ماتوقع حدوثه قبل شهرين تحقق اليوم حرفيا ، هل قرأت جرائد الصباح ؟

ـــ لا ، ماذا حدث ؟

ـــ رفعوا الاسعار ، تماما كما توقع !

ـــ رفعوا الاسعار ؟

ـــ نعم اسعار الخبز والبوتاجاز والبنزين .

تحدثنا فى الموضوع وفى مواضيع اخرى ولكن بشرى كانت موزعة بين ماتسمع وتقول وبين شعور كالقلق راح يتمكن منها . شربت الشاى واستأذنت وصعدت الى طالباتها ودّرست حصتين ثم غادرت المدرسة .

يومها ايضا كان يوما شتائيا .. ولكنه كان اليوم الاول فى السنة الجديدة وكانت قد قررت ان تذهب اليه فى عمله ومعها هدية باقة ورد . سارت من المدرسة حتى محل الزهور ودخلت . كانت أرضية المحل مبللة وكذلك احذية العاملين فيه وكانت الزهور موضوعة فى دلاء على الارض . وورود بلدية حمراء ووردية وصفراء ، براعم صغيرة وورود متفتحة وكبيرة ، قرنفل ابيض وقرنفل احمر ، وأبصال بيضاء وأخرى حمراء وزهور عصفور الجنة وفروع خضراء من اشجار الصنوبر الابرية .

قالت للبائع انها تريد ثلاث ورود بلدية حمراء وفرعا واحدا اخضر . نظر الرجل اليها باستغراب :

ــ خذى نصف دستة !

ــ لا شكرا ، أريد ثلاثا فقط !

ربط لها الورود بشريط ازرق رفيع وحملتها الى الطريق وهى تفكر ان البائع لم يفهم، وتبسمت « لكن طه سيفهم ! »

سارت باتجاه محطة مترو حلوان وهى تفكر انها ستركب محطة واحدة من السيدة الى باب اللوق ثم تكمل طريقها الى طه مشيا .

كانت متوجسة وهى تستعيد بشكل تلقائى كل تفاصيل ذلك اليوم قبل عامين عندما اشترت الورد ولم تستطع الوصول الى طه بسبب المظاهرات فعادت الى البيت ووضعت الورد فى آنية زجاجية ملأتها بالماء وأعدت غداء وجلست تنتظر ولكنه لم يعد . انتظرت اليوم بطوله والليل ايضا . وبعد أيام ذبل الورد وألقت به وظلت تنتظر .. ولم يعد طه الا بعد شهرين . « الله يستر » تمتمت وهى تقترب من المحطة .

عندما وصلتها رأت حشدا من الناس . سألت « ماالخبر ؟ » فقال احدهم ان معاون المحطة يقول ان الخط معطل .

— معطل ؟

— يقولون ان هناك مظاهرات عمالية فى وسط البلد وأن عمال حلوان قطعوا الخط .

تدخلت فتاة فى الحديث :

— بل يقولون ان الحكومة اوقفت القطارات لكيلا يلحق عمال حلوان بالآخرين فتشتعل المظاهرات اكثر .

قال كهل صغير الحجم يلبس بدلة عتيقة :

— وما شأننا نحن وعمال حلوان ، نريد ان نقضى اشغالنا .

وسألتهم بشرى : ماذا ينتظرون اذن مادام الخط معطلا . أجابت سيدة

متبرجة أن المظاهرات قد تنتهى وتمشى القطارات من جديد .

« سأركب الاوتوبيس » قالت بشرى لنفسها وهى تغادر المحطة ، « او امشى » وفكرت ان طه لابد لديه تفاصيل عما يحدث ، كانت الآن تسير باتجاه شارع المبتديان المتقاطع مع شارع القصر العينى وكانت تشعر بنفسها موزعة بين الاستنفار والتوجس .

سمعت صوت المظاهرة قبل ان تراها فأسرعت الخطو لكى تلحق بها ثم انعطفت الى الشارع ورأتهم قادمين .

انتحت جانبا تراقبهم وهم يتقدمون باندفاع صاخب وبطىء ويهتفون ويلوحون بقبضاتهم . رؤوس تتحرك ، رؤوس مكشوفة وحليقة وصلعاء وشعرها كثيف اسود ورمادى وابيض ، خشن ومجعد ومموج ، وأملس ومهوش ومصفف بعناية . رؤوس معممة ومُطّرحة ومربوطة بالمناديل العتيقة . رؤوس تعلوها الطواقى الصوفية والقطنية ، المُفصلة من قماش الجلباب والمنسوجة باليد .

وجوه كبار وصغار ورجال ونساء . وجوه خشنة ومجعدة وناعمه . وجوه قمحية ووجوه خمرية ووجوه بنية ووجوه سوداء . الوجوه غاضبة والجباه مقطبة والافواه فاغرة والحناجر تعلو بالهتافات . الاجساد تتقلص وتموج فى عنف مكتوم ، تنقبض ثم تدفع بنفسها الى حيز جديد من الشارع . اجساد نحيلة ، أجساد فارعة ، اجساد قصيرة ، أجساد جديدة ، أجساد مترهلة تسترها جلاليب « الكستور » المخططة والمنقوشة ، الفاتحة والداكنة ، جلاليب البيت وجلاليب القطيفة السوداء المحفوظة للمناسبات . أجساد تسترها الثياب التقليدية وأخرى فى الثياب الوافدة : البنطلون والقميص والبلوفر ، والجونلة والبلوزة والجاكيت . أجساد مفردة واجساد تحمل : طفلة او سلة او حقيبة كتب مدرسية .

لمحت بشرى صبيين ــ ربما كانا فى العاشرة ــ يسيران معا متشابكى اليدين فى آخر المظاهرة . كان وجههما وملابسهما مُلطخة بشحم السيارات . وكانا هما ايضا يرفعان صوتهما بالهتاف . سارت بجوارهما ، على هامش المظاهرة . وما ان بدأ المتظاهرون يتجهون يمينا الى شارع القصر العينى حتى سمعت هتافا مدويا يأتى من الخلف . التفتت فرأت حشدا يقترب . كانوا من طلاب وطالبات جامعة القاهرة . ثم التحمت المظاهرتان ووجدت بشرى نفسها وسط المتظاهرين الذين أصبحوا أمامها وخلفها وعن يمينها ويسارها . ثم رأت الشاب النحيل المحمول على الأعناق الذى يهتف بصوت جهورى . وأخذت هى ايضا تردد الهتاف ، بصوت خافت وعلى استحياء ثم بقوة . وكانت الآن جزءا من حركة دافقة ومهيمنة تدفعها مع الآخرين ، الذين بدوا لها بلا اول ولا آخر ، الى الأمام . وكانوا يقصدون مجلس الشعب . وكلما اقتربوا منه تباطأت الأقدام وتقاربت الصفوف وارتفعت الحناجر وتوحَّد الهتاف عاليا وهادرا وملحّا :

احنا الشعب مع العمال ضد تحالف رأس المال .
احنا الشعب مع العمال ضد حكومة الاستغلال

ورغم الحرس مشرعى الاسلحة وقوات الامن المركزى كان الصوت يصل الى حكام البلد وراء الابواب المغلقة لمجلس الشعب ومجلس الوزراء والسكان والعاملين فى العمارات القريبة ويتعداها الى شوارع جاردن سيتى الظليلة الهادئة فيسمعه موظفو السفارات الاجنبية فى المنطقة والقاطنون فى شققها ونزلاء فنادقها الفخمة المطلة على النيل . كان الصوت يمتد مدويا ومزلزلا من تمثال سيمون بوليفار حتى ضريح سعد .

وساعتها لم تكن بشرى تعرف ان مظاهرات عديدة كانت قد قصدت هذا المكان نفسه واحاطت به وراحت تطالب .

كان العمال قد جاءوا من مواقعهم فى اطراف العاصمة من الجنوب والشمال والغرب : عمال حلوان وطره ، وشبرا الخيمة ، وعمال ماتوسيان والهرم والمنيب .

وجاء الطلبة من جامعة القاهرة فى غرب المدينة ، وجامعة عين شمس فى شرقها ،والمعاهد الدينية فى شمالها ، وجامعة حلوان فى جنوبها . ومن قلب القاهرة القديمة ، من جامعة الأزهر ، جاءوا .

وجاء الحرفيون وصغار الموظفين من الاحياء الفقيرة : من مصر القديمة والمدبح والسيدة زينب والقلعة والأزهر والموسكى والعتبة وعابدين والشرابية وبولاق وباب الشعرية وامبابة والوراق والمنيب .

جاء السمكرية والنجارون والميكانيكية والبناءون والكهربائية والحمالون والنقاشون وباعة الجرائد .

وجاءت ربات البيوت والعاملات والارامل والمطلقات .

ولم تكن بشرى تعرف وهى تقف وسط هذا الحشد البشرى الهائل ان قوات الامن المركزى قد اخذت تنتشر فى محاولة للتطويق .

وفجأة سمعت فرقعات وصراخ ودبت فى الصفوف خلخلة ، وارتفعت غيمة من دخان : « انها قنابل مسيلة للدموع » ... ، بل طلقات نارية .. ركضت .. انقباض وتراجع اعقبهما فورة تمدد شرس لكتلة بشرية تصهل وتصرخ وتموج وتصطدم وتمتد وتعلو :

احنا الشّعب مع العمال ضد حكومة الاستغلال

جموح جريح ويستعصى :

يادى العار يادى العار مصرى بيضرب مصرى بنار

كان الصوت الآن يأتيهم من خلفهم ايضا ويعلو ويهيمن . كان التلاميذ قد صعدوا الى اسطح العمارات وراحوا يرشقون العسكر بالحجارة وهم يهتفون :

احنا الطلبة مع العمال ضد حكومة الاستغلال

ثم بدأت الطلقات والخلخلة فى الصفوف ، والصراخ .. وراحت بشرى تركض وهى تحاول ان تتقى ذلك الدخان الذى ينفذ الى العيون كالفلفل فتلتهب وتسكب الدموع الغزيرة .

وجدت نفسها جالسة على رصيف بجوار عدد من الشباب كانت عيونهم حمراء وجفونهم ملتهبة وكانوا مثلها يَحُكونها بأيديهم بشكل متكرر . سألتهم ماذا سيفعلون قالوا انهم سيحاولون الوصول الى أحد الميادين العامة ، ميدان التحرير أو الجمهورية او العتبة او عرابى لأن المتظاهرين لابد سوف يتجمعون فيها .. وعندما قامت بشرى لتذهب معهم اكتشفت انها لاتلبس نظارتها . بحثت عنها وطلبت منهم أن يعاونوها ولكنهم لم يجدوا شيئا . لم يكن امامها سوى العودة الى البيت . حيتهم وافترقوا .

سارت فى الشوارع الخلفية مرورا بضريح سعد ومنطقة المنيرة . كانت الشوارع خالية من المتظاهرين وان لم تخل من اثر لمرورهم : حديث

بعض النسوة على ابواب البيوت وترديد الاطفال للهتافات وهم يلعبون . سارت متعجلة كأنما تريد اللحاق بشيىء . وزاد من توترها وقلقها ضياع النظارة ولم تكن قد خرجت بدون واحدة منذ سنوات لم تعد تدرى كم . ومع ذلك كانت ترى مايكفى لتمييز طريقها الى البيت .

عندما فتحت لها امها الباب . شهقت :

— خير ؟

جلست بشرى على اول مقعد صادفها . كررت امها السؤال :

— هل انت بخير؟

— بخير ، فقدت نظارتى ، هذا كل مافى الأمر .

— وطه ؟

— لا أعرف ، لم استطع الوصول اليه .

— كيف جئت ؟

— مشيا .

— من بيتك ؟

ـــ لا من عند مجلس الشعب .

ـــ كنت فى المظاهرات ؟

ـــ نعم

ـــ ولكن يا ابنتى العقل زينة ، أنت حامل ولم اسمع ان امرأة حاملا تمشى فى المظاهرات ! هل تشعرين بتعب .

ـــ لا !

ـــ وانا طول النهار قلقة على طه . وأقول يارب سلم . وأقول بركة ان على مسافر ويطلع ان انت كنت فى المظاهرات .. حرام عليك نفسك !

كان صوت شمس الذى بدأ حادا فى بداية الجملة قد انكسرت حدته وان بقى معاتبا . سألت :

ـــ هل تأكلين ؟

ـــ لست جائعة ... اشرب شايا لو سمحت .

غسلت بشرى وجهها وغيرت ملابسها وجاءت لتشرب الشاى مع أمها التى قالت :

ـــ من الصبح والدنيا قايمة قيامة والناس لهم حق ، هل يأكلون الزلط ! كل يوم

غلاء غلاء . البشر هجّت من بيوتها واتغربت والحكومة مسئولة ولو الدنيا شعللت نار .. هى السبب !

توقفت دقيقة ثم واصلت :

ـــ لو طه عاقل كا يأتى الى هنا مباشرة .. أكيد لو ذهب الى البيت ولم يجدك سيأتى الى هنا .

ـــ كنت أفكر ان أطلب من سيد أن يأخذنى بسيارته الى البيت أحضر نظارتى الأخرى وأترك ورقة لطه انى هنا .. ممكن نذهب من الشوارع الجانبية .

نزلت شمس لتسأل سيد وعادت بعد دقائق معدودة وكانت حانقة :

ـــ لم يقبل الذهاب ، سأذهب أنا !

ـــ ماذا قال ؟

ـــ قال ان الشوارع غير آمنة ، وانهم يحطمون السيارات وانه يستحيل على عاقل ان يخرج من بيته فى يوم كهذا .. سأذهب انا !

ـــ لا يا أمى ، تظلين انت هنا وانا سأذهب وسأعود غدا .. وهذا وعد

ساعتها انفجرت شمس :

ـــ هل جننت .. يابنتى المثل بيقول « ولادة كل يوم ولا سقط العمر » وانا

ماصدقت انك حملتى . لن تخرجى .

ــ اذن الصباح رباح .

وقامت شمس لتعد « لقمة » وهى تؤكد ضرورة ان تأكل بشرى شيئا ولو غصبت على نفسها . أكلتا ثم قامتا لتناما .

ولاحظت شمس ان ابنتها راحت فى نوم عميق ففكرت انها متعبة وتمتمت « ربنا يستر » وكانت قلقة عليها وعلى جنينها ، وقلقة على طه ، وحانقة على سيد ، وتحمد الله ان على مسافر وتفكر ان هذه الحكومة لن توصلها لبر . كل يوم زيادة فى الاسعار فماذا يأكل الناس ؟ ... هل يأكلون بعضهم ؟ ... وغدا ستهاجم الحكومة الناس وكأنهم هم المخطئون ! لعنت ابو هذه الايام الكرب . وهذا الرجل وجهه علينا نحس ، فكرت ، حبس التلامذة وحبس طه وجّوع الخلق فلماذا لايأخذه الله ويريحنا منه ؟!

ونامت شمس نوما متقطعا . حلمت انها تبحث عن على ولا تجده . وحلمت انهم يسوقونها الى السجن .. ثم حلمت ان بشرى مصابة بنزيف . وكلما أغفت رأت كابوسا فتستيقظ وهى تقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » حتى طلع عليها الصباح .

عندما استيقظت بشرى شربت شمس معها الشاى وقالت انها ذاهبة

ــ لن تفطرى ؟

ــ سأفطر عندما ارجع ، لن اتأخر .

وحملت سلتها وخرجت . كان الهدوء مخيما على الشارع وان كانت اثار معارك اليوم السابق واضحة فيه . حجارة متناثرة وزجاج مكسر وسيارة محروقة .

سارت على شاطىء « البحر الصغير » الفاصل بين الحى الذى تسكنه وجزيرة منيل الروضة حتى وصلت الى كوبرى الملك الصالح الذى قطعته وقطعت الجزيرة لتعبر كوبرى عباس الى الجيزة . وقبل أن تصل الى ميدان الجيزة شاهدت الدخان يتصاعد فى سماء المنطقة . وعندما اقتربت اكثر شاهدت الدبابات وعساكر الامن المركزى يطوقون الميدان ، ولكنها واصلت . سمعت هتافات لم تتبين تفاصيلها بعدها جاءت الفرقعات . ورأت شمس امرأة تهرول فى ذعر ثم عدد من الشباب يتراجعون ويلتقطون احجارا من الارض ويندفعون ثانية فى اتجاه العسكر . مرة اخرى علت الفرقعات سمعت احدهم يقول : « رصاص .. رصاص ؟ » سألت وقد اربكتها المفاجأة . قال شاب : «رصاص وقنابل مسيلة للدموع » ثم اوضح ان هناك مظاهرة ضخمة من أهالى الجيزة وساقية مكى والباطنية وماتوسيان وان العساكر يحاولون منعهم من التقدم . ولكن شمس واصلت ولم يكن امامها الآن سوى مساحة مقفرة تماما من البشر تغطيها الحجارة المتناثرة والدخان ، فى نهايتها كان العسكر يصطفون مكونين سدا بشريا يحول دون مرور المظاهرة ... ولم يكن بامكانها رؤية احد من المتظاهرين ولكنها كانت تسمع هدير الهتافات تماما كما كانت تسمع الفرقعات المتتالية ، واصلت .

ركض جندى صغير السن فى اتجاهها وانتهرها بجذع : « هل فقدت عقلك .. هنا موت وبهدلة .. ابتعدى ! » وللحظة وقفت شمس حائرة . كان التقدم من هذه الطريق مستحيلا ولم يكن امامها من خيار .

عادت فى اتجاه الكوبرى ثم انحرفت يمينا بمحاذاة النهر ثم يمينا مرة اخرى الى حوارى الجيزة . « سأذهب من طريق أخرى » فكرت . كان النساء والرجال

يسُبّون الحكومة ورئيسها بأقذع الشتائم ويمولون انها تطلق الرصاص على الناس . وكانت امرأة تقف امام بيتها وتتحدث مع جارتها ، تقول : « يعنى الحكومة قالت اختاروا الموت او الموت . تموتوا من الجوع وتنكتموا اوتعملوا مظاهرة وتنقتلوا ! أما شيء وسخ صحيح ! »

وكان رجل غاضب ينحنى ويخلع حجارة الطريق يساعده فى ذلك بعض الاطفال . سمعت الطلقات عالية جدا هذه المرة واعقبها جلبة وصراخ ورأت شمس بعض النساء والاطفال يتراجعون راكضين ..

انحنت شمس والتقطت كل ماوجدته من احجار وملأت بها سلتها ومضت باتجاه الناس .

□□□

١٥

دعوة
على العشاء
فى كوخ تغطيه الثلوج

أخذت سلمى الرسائل من صندوق البريد وصعدت الى شقتها . تركتها على المائدة ودخلت الحمام . تحممت وجففت شعرها بالمجففة الكهربائية ووقفت امام المرآة لتتزين : كحل فى العينين ، أحمر على الشفتين ورشّة عطر على العنق . لبست ثوبا اسود له ياقة من الدانتيل الابيض . ثم صففت شعرها . وقبل ان تلبس الحذاء الذى يصل الى ماقبل الركبتين القت نظرة على مظاريف الرسائل . كان معظمها فواتير البنك والتليفون ورسالة واحدة من القاهرة . كان المظروف يحمل خط خالتها شمس . نظرت للساعة ودسّت الرسالة فى حقيبتها وهى تفكر انها ستقرأها فى الطريق . لبست الحذاء والمعطف والقبعة والقفاز . ونظرة اخيرة القتها على هيئتها فى المرآة . ابتسمت وغادرت البيت .

سارت الى المحطة ثم نزلت على السلم الكهربائى . لفحها هواء بارد وهى تنتظر على الرصيف . أتى القطار ركبت ثم نزلت . طافت بعينيها بحثا عن الشاب النحيل ذى العينين الزرقاوين . رأته ورآها فرفع يده ملوحا بالتحية وهو يسير باتجاهها مبتسما صافحها وانحنى وقبلها على وجنتها . صعدا السلم الكهربائى ثم سارا فى ممر طويل وانحرفا يمينا الى ممر آخر طويل ايضا اوصلهما الى قسم ثان من المحطة . ركبا القطار الذى حملهما الى ضاحية من ضواحى المدينة .

فى الشارع كان ضوء المصابيح المنعكس على ثلوج الطريق يضفى على المكان زرقة بنفسجية وكأن الوقت ساعة السحر . سارا فى الطريق الجبلية المتعرجة الصاعدة وكانت اشجار الكستناء البرية عارية تماما الا من خطوط ثلجية بيضاء فوق بعض الفروع . اما اشجار الصنوبر الابرية والتى تبقى خضراء على مدى العام فكانت مثقلة بالثلج ، ابيض على اخضر . صعدا درجا حجريا ضيقا مقتطعا من التلة ثم رأت سلمى الضوء المنبعث من نوافذ المطعم وسمعت موسيقى العازفين . كان كوخا مبنيا من جذوع الاشجار تغطى سقفه المائل الثلوج ويضيىء مدخله قنديلان زجاجيان لهما اطار نحاسى .

دفعا الباب ودخلا . لفح وجهاهما دفء المكان والضوء والدخان وصخب الرواد وعزف العازفين . توقفا عند حاجز خشبى تجلس وراءه امرأة مسنة . خلعا معطفيهما وقبعتيهما والقفازات . أخذتهما المرأة واعطتهما ورقة تحمل رقما فى المقابل . دخلا الى قاعة الطعام وجلسا الى مائدة خشبية مربعة . وأطرى هنريك جمال ثوبها وقال ان اللون الاسود يلائمها بشكل خاص .

وكانت سلمى قد التقت به فى يوم من ايام الآحاد الكثيرة التى تحمل فيها غذاءها وتذهب لقضاء اليوم فى حديقة من حدائق المدينة . تسير بين مساحات

— لو اردت أعلمك العزف على الصفارة .

ضحكت سلمى وهى تقول :

— فيكون لقاؤنا تحت شجرة الكستناء هو المصادفة !

قال هنريك انه بحاجة الى سجائر لأن علبته فرغت وانه سيشترى من البائعة الآلية التى فى الممر وقام .

تذكرت سلمى رسالة خالتها شمس فأخرجتها من حقيبتها وفضتها . وكانت شمس تقول انهم قبضوا على طه مرة اخرى وان الامر هذه المرة يختلف عن المرات السابقة التى كانوا يعتقلونه فيها لشهر او شهرين . « لقد قبضوا عليه ونشروا صورته فى الجريدة وقالوا انه متهم مع آخرين بانشاء تنظيم ضد الحكومة وانه سيقدم للمحاكمة » وبشرى تقول والمحامون ايضا ان القضية من اساسها ملفقة .

وبشرى الآن تقيم معى هى وابنها خالد . والحق ياسلمى انى قلقة عليها جدا لأنها اصبحت مثل العود ولا ترحم نفسها من العمل ولا التفكير .. « وربنا يجعل العواقب سليمة » . ولم تنس شمس ان تكرر سؤال كل مرة : « متى تنوين العودة بالسلامة ؟ » وان توصيها : « اعتنى بنفسك واحرصى عليها وكلى جيدا » .

وفكرت سلمى انها لو قرأت الرسالة وهى فى البيت لاعتذرت عن دعوة هنريك للعشاء . مسكينة بشرى كل يوم يمسكون بزوجها . وهذه الحكومة العجيبة تملأ الدنيا حديثا حول الديموقراطية وهى تعتقل الناس وتختلق لهم التهم .

العشب وعندما ينهكها المشى والجوع تفرد ملاءة صغيرة وتجلس عليها لتناول الطعام .

فى ذلك اليوم رأته . كان يجلس مسندا ظهره الى جذع شجرة كستناء ضخمة وينفخ فى صفارة خشبية سوداء طويلة مزينة بنقوش حفرت عليها . كان يصفر لحنا شديد العذوبة والجمال . ولم يكن يضع بجواره منديلا ليضع المارة فيه النقود بل لم يكن جالسا فى مكان يكثر فيه المارة . كان يعزف وحده وكأنما هو يعزف لنفسه أو لعصافير منصتة على الشجر او لثمار الكستناء التى كان معظمها قد شق قشرته الابرية الخضراء كاشفا عن قشرته الداخلية الاخرى البنية اللامعة .

وقفت تستمع ولاحظ هو ذلك وعندما انتهى سألها بالالمانية ان كانت قد أحبت عزفه فردت عليه بالايجاب ولكنها قالت له انها لاتعرف سوى بضع كلمات من الالمانية فسألها ان كانت تعرف الانجليزية فقالت انها تعرف . فبدأ يعزف لحنا آخر مرحا وسريعا ثم توقف وسأل بالانجليزية هذه المرة « مارأيك ؟»قالت : « رائع ! » فضحك وعزف لها مقطوعة ثالثة .

وجدت نفسها تسأله ان كان يقبل تناول الغذاء معها فوافق . فرشت الملاءة بجواره ووضعت عليها ماحملته من طعام واكلا معا . علق مبتسما : « بك شيىء من ام ريفية طيبة ؟ » وعندما افترقا شكرها وشكرته وقال : « لو اردت ان تستمعى لعزفى مرة اخرى فسوف تجدينى فى نفس المكان الاسبوع القادم » .

سألته سلمى :

ـــ هل تذكر ذلك اللقاء الأول فى الحديقة ؟

ضحك وقال :

ـــ وما الذى ذكرك به الآن ؟

ضحكت وجاء النادل بزجاجة النبيذ الأحمر التى طلباها ، اراها لهنريك ثم فتحها وصب له جرعة تذوقها وحرك راسه موافقا فانتقل الى سلمى وملأ لها كأسها ثم عاد الى هنريك وملأ كأسه وترك الزجاجة على المائدة وانصرف .

ـــ لم أحك لك ابدا حكايتى مع هذه الصفارة . انها فعلا حكاية عجيبة . كنت فى العاشرة او ربما اصغر . واصطحبتنى امى الى احد المتنزهات . وكنت اركض فى الحديقة عندما سمعت عزفا . تتبعت الصوت فوجدت رجلا طاعنا فى السن ، صغير الحجم ، له وجه متغضن وشارب ابيض كث ، ويرتدى ملابس قديمة تنم عن فقره . وكان يجلس على مقعد خشبى من تلك المقاعد المتناثرة فى الحدائق وبجواره عجوز فى سنه ـــ عرفت بعدها انها زوجته ، تلبس هى ايضا ثوبا عتيقا وتغطى شعرها بايشارب . بجوارهما كان هناك المنديل المعتاد الذى يضع فيه المارة القروش .

بقيت واقفا استمع . وسألنى الرجل ان كنت أحببت عزفه فحركت راسى بالايجاب فقال « تَعَال » ومد لى يديه المعروقتين وجعلنى امسك الصفارة وقال « امسكها هكذا ! » وعلمنى كيف « ضع اصابعك هنا » نعم هكذا ... والان انفخ وأصبحت صديقا للرجل وتلميذا له ايضا . وصرت اصر أن تأخذنى امى الى هذه الحديقة بالذات كل يوم احد حتى عندما يكون الجو رديئا . وفى يوم كان المطر كالسيل واكدت امى ان العازف وزوجته لن يكونا بالحديقة ولن يذهب اليها احد على الاطلاق فى يوم كهذا ولم اقتنع بكلامها وقضيت اليوم بطوله ابكى واقول انها لاتحبنى وتحرمنى

من الاشياء التى أحبها .

لقد علمنى هذا الشيخ العزف . وهو الذى اهدانى هذه الصفارة والعجيب اننى لم احاول ابدا ان اعزف على صفارة اخرى . ولو لم التق صدفة بهذا الرجل لما تعلمت العزف بل وربما حتى ماعرفت اننى احب ان اعزف !

— ولأصبحت حياتك خالية من هذا الشيىء الجميل والاساسى الآن بالنسبة لك .

— كنت محظوظا بهذا اللقاء !

— انها مسألة حظ فعلا . مرات افكر اننى لو ولدت فى اسرة لها علاقة حميمة بالثقافة تأخذ اطفالها لحفل موسيقى او متحف او توجههم فى القراءة لكنت شيئا مختلفا .. لست متأكدة ولكن يبدو لى ذلك احيانا .

— هل تعزفين ؟

— لا

— ولكنك تحبين الموسيقى ، وهذا واضح .

— احب الموسيقى ، واحب الرسم ، واحب النحت ، واحب الشعر . ومرات كثيرة اشعر بشيىء داخلى يفيض وارغب فى التعبير عنه ولا اعرف كيف .

عاد هنريك وبيده علبة سجائر من النوع الذى يدخنه . وكانت الرسالة مازالت بيدها . طوتها واعادتها الى الحقيبة وقام هو بافراغ المتبقى من النبيذ فى الزجاجة فى كأسيهما . وكان النادل قد اتى بالأكل المطلوب . وقال هنريك وهو يبتسم :

ــ شهية طيبة .

اجابته وكانت تفكر انها سوف تكتب رسالة طويلة لبشرى ما أن تعود الى البيت « لو كان هناك تليفون فى بيت خالتى شمس لكنت اتصلت بهم غدا صباحا .. أو حتى الليلة » . فكرت وهى تمضغ بشكل آلى قطعة من اللحم الذى طلبته :

ــ ما رأيك فى اللحم ؟

سأل هنريك

ــ ممتاز !

ــ هل تجيدين الطهى ؟

ــ لا !

ضحك وقال ان هذه جرأة تحمد عليها . استمرا يأكلان فى صمت ثم سألها ماذا تطلب للتحلية فقالت انها تريد شايا .

ـــ فقط ؟

ـــ فقط !

طلب لها الشاى وقهوة لنفسه . شربا ثم دفع هنريك الحساب وقاما الى المعاطف واستعادا أشياءهما وخرجا .

سارا فى الطريق المنحدرة وكان الطقس شديد البرودة وأحاط هنريك كتف سلمى بذراعه وراح يغنى بصوت خافت اغنية لم تفهم من كلماتها شيئا . كانت تشعر بالاضطراب وتريد ان تعود الى البيت بأسرع وقت . وعندما وصلا الى محطة المترو قال لها انه سيوصلها الى البيت فقالت انه لاداعى لذلك . قال :

ـــ سلمى ، حقيقة يسعدنى أن اوصلك للبيت ، هل لديك مانع ؟

ـــ اشكرك جدا على هذه الليلة الجميلة .. لكن لاداعى .

هل احمر وجهه ام تصورت هى ذلك ؟ تصافحا وقبلها قبلتين سريعتين على وجنتيها وركبت القطار الذى لم يكن به سوى عدد محدود من الركاب .

جلست منكمشة وحانقة على نفسها . لماذا تقبل الخروج للعشاء مع شاب ثم تتركه هكذا فى منتصف الليل يعود وحده ؟! هذا سلوك غير أخلاقى ! هل من الأخلاق اذن ان تقضى الليل معه ؟!

نزلت من القطار وصعدت على السلم الكهربائى ثم سارت فى ممر طويل لتركب قطارا آخر . على الرصيف رأت عامل تنظيف وبدا لها انه مصرى . قبل

ثلاثة اعوام فقط كانت رؤية مصرى او مصرية فى المدينة حدثا بالنسبة لها اما الآن فالأمر يختلف . صارت تتعرف على وجوههم السمراء الاليفة فى اماكن عديدة ، يبيعون الجرائد ، يقدمون القهوة ، يقفون امام شوايات الهامبورجر ومقالى الدجاج ولكن قد لايكون هذا الشاب مصريا . اقتربت منه وقالت :

ــ مساء الخير .

جفل الشاب ولم يكن منتبها . ثم ابــتسم :

ــ أهلا مساء الخير ، مصرية ؟

ــ مصرية .

ــ تعملين هنا .. أم فى زيارة ؟

ــ اعمل هنا .

أتى القطار فلوحت له بيدها وركبت . ورأته بعد ذلك وهو ينصرف لعمله فى تنظيف المحطة . ظلت واقفة رغم الاماكن الشاغرة حتى غادرت القطار .

أدارت المفتاح فى باب البيت . ودفعت الباب ثم اغلقته . كان الظلام مطبقا . أضاءت النور ثم خلعت المعطف والقبعة والحذاء وغسلت وجهها وجلست لتكتب رسالة لبشرى ولم تفلح . وجدت نفسها تكتب شيئا آخر :
رجال

يقفون على النواصى

فى لسعة البرد

يبيعون الجرائد المكتوبة بلغة لم يألفوها

رجال يخدمون فى المقاهى حتى الساعات الأولى من الفجر وينظفون محطات المترو المضاءة بالكهرباء

رجال

اذا أوغل الليل

يذهبون لاطفاء الشهوة .

ولكنهم

لايجرؤون ابدا

أن يحكوا عن أمهاتهم

ولا عن إخوتهم الصغار

ولا عن علاقاتهم

التى فتنها السفر ،

الرجال الغرباء

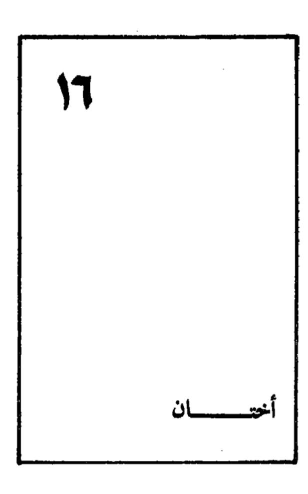
فى المدن الغريبة

يجمعون القروش

ويحسبون الايام

وينفقون العمر .

□□□



١٦

أختـــــــان

وضعت سلمى حقائبها واغلقت باب الحجرة ثم اتجهت الى التليفون للاتصال بمديحة للتأكد من ان كل ما اتفقتا عليه قبل ان تغادر فيينا ساريا . ردت عليها مديحة . وقالت انها ستصلها بعد ظهر اليوم التالى : « سأخرج من عملى مبكرة .. سأركب اتوبيس الواحدة ظهرا وسأكون عندك بالفندق بعد الرابعة بقليل » . وضعت سلمى سماعة التليفون ودخلت الحمام ، غسلت يديها ووجهها وغادرت الغرفة . أنزلها المصعد الى بهو الفندق ، تركت مفتاح الغرفة لدى الموظف المختص ثم دفعت الباب الزجاجى المفضى الى الشارع وخرجت .

« لابد اننا بقلب العاصمة » ، نظرت الى ساعتها كانت تقترب من التاسعة . الشارع مضاء مزدحم بالمارة واغلبهم شباب يسيرون فى مجموعات صاخبة او يثرثرون وهم واقفون امام المحلات الصغيرة التى تبيع المشروبات والفطائر . إمرأة تلتف بملاءة بيضاء تكاد تحجب وجهها تسير برفقة رجل . توقفت سلمى عند الاشارة الضوئية فى انتظار العلامة الخضراء لكى تعبر . يتوقف سيل السيارات فجأة فتعبر . واجهات زجاجية مضاءة لمحلات تجارية مغلقة . بالواجهات نماذج خشبية لرجال ونساء تعرض الملابس الباهظة الثمن . ودار سينما تعرض فيلما مصريا يعلن عنه ملصق ملون كبير يصور شابا وسيما يدير ظهره لامرأة باكية تغطى وجهها بكفيها ، واسم الفيلم « ارحم عذابى » مكتوب بخط بارز .

دخلت سلمى لشرب الشاى فى مقهى كبير ملاصق للسينما . حدقت فيها عيون الجالسين فانتبهت لخلو المقهى من النساء . خرجت من الباب الآخر ودخلت محلا صغيرا للمشروبات . دفعت ثمن كوب من عصير البرتقال . ناوله لها صبى يلبس قميصا يصعب تحديد لونه ، بليت ياقته وتقطعت بعض ازراره شربت العصير وهى واقفة ثم واصلت جولتها .

استوقفها صف من الأكشاك الخشبية لبيع الزهور . زهور كبيرة لها سيقان خضراء قوية موضوعة فى دلاء من البلاستيك مصفوفة على الأرض ، أبصال بيضاء وحمراء ووردية . وقرنفل وورد بلدى وزنبق موزعة فى باقات حسب نوعها وموضوعة ايضا فى دلاء . وزهور منمنمة وهشة : زهر البسلة والبنفسج والبانسيه وانواع اخرى لاتعرف لها اسما فى ضمم تحملها اوان صغيرة مصفوفة على عوارض خشبية يقف وراءها دائما رجال ، خشنون وفقراء ، يبيعون . رأت رجلا متأنقا ولامعا يشترى باقة ، لفها له البائع فى ورق السيلوفان وربطه بشريط وردى رقيق . حمل الرجل باقته واسرع الى سيارته المصفوفة بجوار الرصيف . وضع الزهور فى

المقعد المجاور وادار المحرك وذهب .

سارت بمحاذاة أكشاك الزهور حتى بلغت ساحة دائرية كبيرة يتوسطها تمثال حجرى لرئيس الجمهورية واقفا على قاعدة مرتفعة يشير بيده اليمنى الممدودة امامه . وكان هذا الجزء من الشارع أهدأ ويخلو من دور السينما والمقاهى . كذلك بدا الضوء أكثر خفوتا .

استدارت عائدة فى نفس الطريق . كانت الزهور الآن عن يسارها . ظلت تمشى حتى وصلت الى ساحة ثانية اكبر صاخبة وتلتمع بالاضواء ويتوسطها تمثال برونزى كبير لفارس يركب على حصان يرفع احدى قائمتيه الاماميتين . وكان التمثال لرئيس الجمهورية ايضا . أخذت تروح وتغدو بمحاذاة الزهور وبين التمثالين حتى تعبت قدماها فاتجهت الى الفندق .

ما أن فتحت عينيها حتى نظرت الى ساعتها . وجدتها لم تصل السابعة . فتحت المذياع فاستعذبت اللغة العربية المنبعثة منه . تدثرت بالغطاء مستمتعة بدفء السرير . دقت الساعة السابعة وبدأت نشرة الأنباء بخبرين عن حاكم البلاد المُفّدى ثم خبرين عن رئيس وزرائه تلتها انباء محلية ثم الانباء العالمية . انتهت النشرة ثم بدأ برنامج من اقوال الرئيس .

طلبت الافطار بالتليفون ودخلت الحمام . تحممت وارتدت ثيابها ثم وقفت تنظر عبر زجاج النافذة الى حركة الشارع واسطح المبانى المجاورة . كانت فيروز الآن تغنى « سنه عن سنه عم يغلى ع قلبى عهد الولدنه » . وعلى سطح البناية المجاورة وقفت خادمة صغيرة تنشر الغسيل . تنحنى على سطل البلاستيك تأخذ منه قطعة ملابس ، تنفضها بقوة وتشب على اطراف اصابعها وتشبكها فى الحبل

ثم تعود وتنحنى على السطل . دق الباب ودخل النادل يحمل صينية الافطار . صبت لنفسها الشاى وراحت ترشفه ببطء وهى تتساءل عن كيفية قضاء الوقت حتى وصول مديحة .

تركت الغرفة ونزلت . اشترت الجرائد من المحل الصغير الذى بداخل بهو الفندق ثم جلست لمطالعتها . كانت مستغرقة تماما فى القراءة عندما سمعت اسمها و « غير معقول ... انه عالم صغير فعلا ؟ » . رفعت عينيها ولكنها لم تتعرف على الرجل الذى وقف فى مواجهتها . فكرت انه قد يكون الرجل الذى رأته يشترى الزهور الليلة السابقة . ولكنه هتف باسمها « سلمى » ثم باسمها كاملا « سلمى عبد التواب » مدت يدها لمصافحة الرجل وهى تبتسم لمداراة ارتباكها . كان الرجل طويلا عريض المنكبين ، يميل الى الامتلاء ويلبس بدلة كاملة من ثلاث قطع .

ـــ واضح انك لاتذكرينى ، أنامجدى سلام .

كانت تعرفه . كان جارهم وصديقا حميما لسيد . ولكنها تطلعت اليه اكثر مجتهدة ان تجد فى ملامح الرجل وهيئته الولد الذى كان جارهم . هتفت وهى تضحك :

ـــ طبعا لم اعرفك ، لأنك ببساطة زدت حوالى ٢٠ كيلو ، وكنت ولدا واصبحت « بيه » .

ضحك مجدى ضحكة صاخبة وقال :

ـــ أما أنت فلم تتغيرى على الاطلاق !

— غير صحيح !

— والله صحيح .. ربما ازددت نحافة .. وجمالا !

سألها ان كان بامكانها ان تتناول الغداء معه فاعتذرت بسبب وصول مديحة فدعاها للجلوس ولو لنصف ساعة فى مقهى الفندق . حملت الجرائد وتبعته وهو يقول ان رُبَّ مصادفة خير من الف ميعاد .

جلسا فى المقهى وطلب هو فنجان قهوة وطلبت هى شايا . قالت وهى تضحك :

— هل تذكر يوم تسببت فى ضربى ؟

— ذكرينى .

— كنت اركب دراجة استأجرتها من عم على العجلاتى الذى خصّنى بواحدةمزينة ولها جرس عال . سقتها وانا اتمايل فى زهو وادق الجرس . المهم اخذ بعض الاولاد يعاكسوننى واخذت انا اضحك فاذا بك تظهر فى الشارع وتطلب منى ان اعيد الدراجة الى عم على « فورا ! » قلتها بصوت آمر فرفضت فقلت لى انى قليلة الادب لأنى اترك الاولاد يعاكسوننى . ولما قلت لك اننى مؤدبة اكثر منك ركضت كالسهم فى اتجاه بيتنا وانت تنادى على سيد : « الحق .. اختك » فنزل سيد بالبيجامة والشبشب وضربنى وشتم الاولاد واعادنى الى البيت باكية . ولما عاد ابى من الشغل حكى له فضربنى مرة اخرى .

— لا اذكر اطلاقا .

— اما انا فأذكر جيدا .. لأنى ضربت مرتين !

— المهم ، ماذا تفعلين هنا ؟

— اعمل مترجمة فى النمسا وانا الآن فى طريقى للقاهرة لقضاء الاجازة مع العائلة . ولكننى رتبت سفرى عن هذا الطريق لكى ارى مديحة اختى لأنها ليس لديها اجازة ولن تتمكن من المجيىء الى مصر الآن .

— هل تعمل مديحة هنا ؟

— نعم ، ولكن ليس فى العاصمة .

سألته :

— وانت ماذا تعمل ؟

ابتسم ابتسامة عريضة يملؤها الاعتداد :

— انا رجل اعمال !

— مثل سيد ؟

— تقريبا

ـــ ماشاء الله !

سألها عن افراد العائلة فحكت له ثم عاود السؤال عن بشرى :

ـــ بخير ، عندها ولد اسمه خالد .

ـــ بشرى انسانة رائعة ، جميلة وذكية ومن يوم ماعرفت بزواجها من ذلك الشخص الذى يسمى طه وانا حزين عليها .

ـــ ولكن طه انسان ممتاز . هل رأيته او تحدثت معه ؟

ـــ ولماذا اراه او اتحدث معه ، ومن اين يأتى الامتياز اذا كان كل يوم والتانى يدخل السجن فى قضية سياسية يعنى ولد صايع لاشغله ولا مشغله .وبشرى لم تكن تستحق هذا ابدا . كانت تستحق وزيرا او مديرا ..

ـــ او رجل اعمال !

ولم يخطر ببال الرجل الا ان تكون عبارة سلمى اطراء له فابتسم واشار للنادل . دفع له الحساب وقاما .

انتظرت سلمى فى بهو الفندق حتى رات « رجل الاعمال » يغادره ثم غادرته هى ايضا . تجولت لبعض الوقت فى الشوارع ثم عادت وجلست تنتظر .

رأت مديحة عبر الباب الزجاجى للفندق قبل ان تدفعه بيدها لتدخل . وما ان دخلت حتى كانت سلمى تقف امامها لاستقبالها وذراعها مفتوحتان

بوسعهما . احتضنتها وهى تكرر اسمها ثم انتزعت نفسها لتنظر اليها ثم عادت وضمتها مرة ثانية . حملت عنها حقيبتها الصغيرة وجذبتها باتجاه المصعد قائلة :

ــ تعالى الى الغرفة اولا لتغسلى وجهك قبل ان نتناول الغداء .

قالت مديحة وهما فى المصعد :

ــ أحيانا كان يبدو لى وكأننا لن نلتقى ابدا !

ــ إزددت نحافة يامديحة !

ــ هكذا نحن ، نسل عبد التواب كلما كبرنا ازددنا نحولا .

ــ الا سيد .

ضحكت :

ــ وهذا دليل اضافى على صحة نظريتى انه ابن حرام !

ــ لم تتغيرى !

قالتها سلمى بمزيج من العتب والفرح وكانت تدير مفتاح الحجرة فى الباب .

« هل صحيح انها لم تتغير ؟ » تساءلت سلمى وهى تنتظر ان تنتهى

اختها من الاغتسال . كلنا تغيرنا ، ولو بقدر . ولكن مديحة بثوبها الفضفاض الذى يشبه الجلباب وشعرها الململوم كالعادة على شكل ذيل حصان وببديهتها السريعة الساخرة استحضرت الماضى كأنه لم يمض .

نزلنا الى مطعم الفندق وجلسنا لتناول الغداء . وسألت مديحة اختها ماذا تشرب قالت « ماء » طلبت سلمى لنفسها زجاجة نبيذ احمر وعلقت مديحة « أرى اننا اصبحنا ألا فرانكا خالص ! » ضحكتا ثم راحتا تثرثران . انتقلتا من موضوع الى موضوع بلا منطق الا التداعى . تبدآن حكاية فيذكرهما تفصيل منها بحكاية اخرى فينتقلان اليها . وتستفسر احداهما عن امر يحملهما الى حكاية ثالثة . وهكذا من موضوع الى موضوع ومن قصة لغيرها ... ولكنهما كانتا فرحتين مستغرقتين فى فرحهما باللقاء حتى أن النادل جاءهما بالطعام واكلتا وعاد فرفع الاطباق الفارغة واقفر المطعم تماما الا منهما والعاملين فيه الذين اخذوا يعدون الموائد للعشاء دون ان يستوقفهما أى شىء من ذلك .

ضحكت مديحة وهى ترى اختها تفرغ آخر مافى الزجاجة فى كأسها .

ــ يخرب بيتك ياسلمى ، تشربين زجاجة نبيذ كاملة ولا تسكرين !

ضحكت سلمى وهى تقول :

ــ لم اسكر ولكنى انتشيت ولو لم اكن شربت لمنعنى الحياء من ان اقول لك اننى احبك كثيرا واشعر باعتداد خاص بكل ماهو انت : هيئتك وجرأتك وقوتك !

ــ بركة ان آثار النبيذ لم تتعد مديح البنت مديحة . انا قلت لنفسى الآن

ستسكر وتبدأ فى البكاء على اطلال آل عبد التواب !

— كيف عرفت ؟

— كنت امزح ، هل انت جادة ؟

لفهما الصمت لدقائق ، عندها لاحظت مديحة انه لم يعد احد فى المطعم الا هما فاقترحت على اختها الصعود الى الحجرة .

غيرتا ملابسهما لتقّيلا لبعض الوقت ولكنهما ظلتا تثرثران حتى وجدتا ان الساعة تجاوزت السادسة مساء . طلبت سلمى شايا عبر التليفون . والتفتت إلى أختها قائلة انها لم تفهم ابدا لماذا قررت السفر للعمل خارج مصر .

— أحيانا اقول لو ان مديحة فى البيت لما استطاع سيد الاستفراد بأمه والاساءة اليها بهذا الشكل .

— لم ارد ان اكتب لك هذه التفاصيل فى رسائل لكن ساعتها كنت مرتبطة بشاب وكان علينا ان نفكر فى طريقة تُمكننا من الزواج وفتح بيت . ولم نجد امامنا الا السفر . قررنا ان نقبل اول فرصة امامنا وهكذا جئنا انا الى هنا وذهب هو إلى الخليج

— ثم ؟

— توتة توتة فرغت الحدوتة !

ـ انتهت العلاقة ؟

ـ التقينا بعد عامين ولم نجد مانقوله . وكان ذلك فاجعا لكلينا ولكننا كنا اذكى من ان نخدع انفسنا فذهب كل فى طريق .

ـ انا آسفة ، آسفة جدا لفتح هذا الموضوع .

ـ فتحت الموضوع والآن عليك ان تقومى لفتح الباب ، الشاى وصل !

فعلا مديحة لم تتغير ، فكرت سلمى فى ذلك وهى تفتح للنادل الذى أتى بصينية فضية عليها فنجانين فارغين وابريقين معدنيين بهما ماء مغلى وثلاثة اطباق صغيرة فى احدها اكياس الشاى وفى الثانى اكياس السكر والثالث عليه شرائح من الليمون . أخذت سلمى تصب الشاى فى حين واصلت مديحة :

ـ بعدها عدت الى هنا لأننى كنت اتعس من ان اظل لأبدأ فى البحث عن عمل جديد .

أخذت فنجان الشاى من سلمى وضحكت فجأة وهى تقول :

ـ مرة سمعت اسمهان تغنى ليالى الانس فى فيينا فشعرت انى افتقدك بشكل حاد ، افتقدك لانى افتقدك ولأنى ايضا كنت بحاجة اليك . تمنيت لو كنت امرأة ثرية لأشترى تذكرة طائرة لزيارتك ولو ليوم واحد .

ـ ست سنوات فى فيينا لم تخطر ببالى هذه الاغنية ابدا الى ان ارسلت لى امينة رسالة تقول فيها انها سمعتها فى الراديو فتذكرتنى وبكت .

انتفضت مديحة واقفة وراحت تتمايل وتحرك يديها كأنما تحمل مروحة كبيرة وتقلد أداء اسمهان بشكل كاريكاتورى :

ليالى الأنس فى فيينا
نسيمها من هوى الجنة
نغم فى الجو له رنة
سمعها الطير بكى وغنى

ثم وهى تقفز ثانية الى مقعدها وتجلس :

— صفى شعورك ؟!

— شعور بالغيظ ، والغيظ الشديد خصوصا عندما تقول :

آدى الحبايب ع الجانبين
إيه اللى فاضل ع الجنه

وكأن شخصا يقصد ازعاجك بتأكيد عكس ماترينه وتشعرين به . لحنها لطيف لكن كلامها فارغ ؟

— بالعكس كلامها دال جدا ويكشف عن علاقة الطبقة الوسطى الكبيرة فى مصر بأوروبا التى ترى فيها النعيم والجنة وليس الاستعمار ولا حتى اوروبا الحركة العمالية او الاتجاهات الطليعية فى الفنون .

قاطعتها سلمى وهى تضحك :

ــ أراك عدت لمواعظك القديمة !

ــ عدت وقد ازددت حكمة .

قالتها بشيء من هزل لايخلو من جد وهى تحنى رأسها قليلا فى حركة مسرحية :

ــ قراءة + عقل ألمعى + روح وثابة = انسان حكيم !

ــ والله انك مجنونة !

ــ والله ان سلوكى عين العقل .. هل تعرفين ماهو البديل ؟

ــ البديل ؟

ــ نعم ، البديل هو ان تصبحى جزءا من مجتمع استهلاكى عجيب غريب : نساء يُدمّن الاسواق ولا يتعبن من تكرار الحديث فى خلو الشقة وطلاء البيت وثمن متر الحرير الطبيعى . ويتمتعن بحصيلة مدهشة من المعارف فى كيفية وضع الزبادى على الشعر لكى يصير أملس وشرائح الخيار على الوجه لكى تصبح بشرته انعم يعنى باختصار اهدار مُبَرمَج للعمر ..

كانت سلمى تتابع حديث اختها بدهشة وشيىء من الاستمتاع . كانت قد كبرت ، فى حديثها ثقة . شيىء واحد لم يكن قد تغير فيها : جرأتها .

ــ انت مجنونة يامديحة ، مجنونة ورائعة !

ـــ مع انك لم تشربي زجاجة نبيذ !

اقترحت سلمى ان تستعدا للخروج لتناول العشاء « فى مطعم مميز وجميل » تترك اختياره لمديحة التى اعترضت وقالت انها كانت سوف تصاب بالسكتة القلبية حين رأت المبلغ الذى دفعته اختها ثمنا للغداء . « سنأكل سندويتشات ! » ضحكت سلمى وقالت انها موظفة « كبيرة » وانه لن تحدث كارثة لو دللت نفسها واختها ليومين . ولكن مديحة أصرت على السندويتشات ...

ـــ ونشرب عصير برتقال ، مفيد ولذيذ .

ـــ ثم ادعوك الى كأس كونياك فى أى مقهى .

ـــ والله انك خربتى وكان الذى كان . أى كونياك ياسلمى هذه ليست فيينا بل مدينة عربية قبل شهرين فقط سدت شوارعها مظاهرات الجوع .

ـــ دمك تقيل !

نزلتا واكلتا ساندويتشات فى الطريق وتجولتا فى الشوارع ثم رجعتا وجلستا فى مقهى الفندق . طلبت سلمى كأس كونياك ومديحة عصير برتقال .

قالت مديحة :

ـــ منذ متى لم ترى بشرى ؟

ـــ منذ آخر مرة ذهبت فيها إلى القاهرة ، منذ اربع سنوات .

ــ ستجدينها تغيرت .

ــ كلنا تغيرنا يامديحة .

ــ أصبحت هادئة ... لا أدرى حتى ان كان هذا الوصف دقيقا .. كأنها مشغولة أو مأخوذة بشيىء ما لاتُفصح عنه ابدا .

ــ طبعا مشغولة بموضوع طه . كانت خالتى شمس متحفظة على زواجها منه ... أنا لم اره سوى مرتين ولا اعرف ان كان يستحق كل هذا العناء .

ــ طه انسان عظيم .

ــ لا أظن ، اعتقد انّه متهور . مادام قرر ان يتزوج وينجب فكان اجدر به ان يلزم حدوده .

ــ ماتقولينه سخف ياسلمى . يلزم حدوده ؟ اية حدود ؟!

ــ اقصد ان عليه ان يفى بمسئولياته كزوج وأب .

ــ وماذا عن مسئولياته كمواطن ، واعٍ ومثقف ؟

ــ يقولون انه شيوعى .

ــ وان كان ؟!

— والله يامديحة ان القراءة جننتك .

— شيوعى او غير شيوعى . الرجل مواقفه كالذهب .

— انا لاأفهم فى السياسة ولا احب الحديث فيها . ولكنى اشعر بالتعاطف الشديد مع بشرى واشعر ان زواجها من هذا الرجل اغرقها فى بئر من التعاسة واظل اقول لنفسى ليتها لم تتزوجه !

— تفكيرك غلط !

صعدتا الى الغرفة وبنيتهما النوم مبكرا لأنهما كانتا متعبتين ولأنهما ايضا كانتا ترغبان فى قضاء الصباح فى جولة سياحية فى المدينة الا انهما ظلتا تتحدثان ، كل تُفضى الى اختها وتحكى لها عن حكايتها فى المدينة التى تعيش وتعمل فيها ولم تناما الا فى الساعات الاولى من الفجر .

استيقظت مديحة قبل أختها . نظرت فى ساعتها فوجدتها تقترب من العاشرة وحاولت ان توقظ سلمى والحت فى ذلك .

— لايعقل ان تأتى وتذهبى ولا ترين من المدينة شيئا .

ولكن سلمى غطت وجهها وهى تقول :

— جئت لرؤيتك وليس لرؤية لمدينة اتركينى انام ولو ساعة واحدة اخرى .

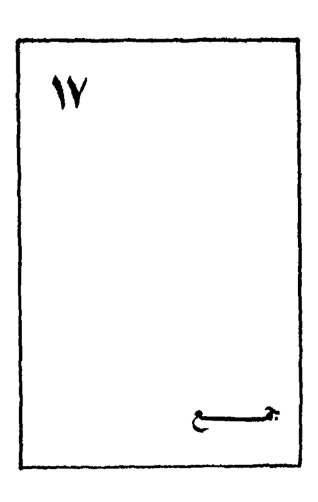
وعندما استيقظت سلمى تناولتا افطارهما وقضيتا باقى النهار والليل ايضا

تتحدثان . كانت مديحة قد قررت ان تركب اتوبيس الخامسة صباحا لكى تصل الى عملها فى الموعد اما سلمى فكانت طائرتها ستقلع فى العاشرة صباحا وكان عليها ان تغادر الى المطار الساعة الثامنة .

لم تناما قط تلك الليلة وحين جاءت لحظة الوداع شعرت سلمى انها اكثر اشتياقا لاختها كانت الساعات القليلة التى جمعتهما قد خلقت لحظة تواصل تجعل الفراق صعبا . وبدا لسلمى وهى تقبل اختها مودعة ان رحلة العودة قد بدأت تنشر ظلالها الداكنة قبل ان يكتمل الوصول .

قالت لها مديحة وهى تلوح لها بيدها للمرة الاخيرة وتغادر الفندق « قولى لخالتى شمس اننى سوف اعود العام القادم .. وسأقيم معها الى ان اجد عملا وعريسا ! » وضحكت . ودّعتها سلمى وهى تضحك ايضا ولكنها ما أن صعدت الى غرفتها حتى انخرطت فى البكاء ، وظلت تبكى الى ان حملتها سيارة اجرة الى المطار .

□□□



سبعة ايام قضتها شمس فى الاعداد لذلك اليوم . كنست ونفضت ودعكت وحكت ومسحت وغسلت ولمعت ورتبت حتى اذا ماانتهت تطلعت الى البيت من حولها فألفته هادئا ومرتبا وضاويا . تمتمت : « كأن العيد غدا » ثم سخنت ماء وتحممت وكما كانت تفعل فى صباها تطيبت بالعطر وكحلت عينيها ودهنت شعرها بشيىء من زيت الزيتون .

فى الصباح توجهوا الى المطار . وطوال الطريق لم يكف خالد عن الكلام مع أمه ولكنها كانت منشغلة عنه تدعو الله ان يحفظ كل الطائرات : « بحق

جاه النبى ترأف بحال الناس وبحالى .. بحق جاه صفّيك وحبيبك تكتب لعينى الفرح برؤيتهم ... » ولكن خالد كان الآن يشدها من ثوبها محتجا لأنها لاتسمع مايقول :

ــ أريد ان تشترى لى طائرة حقيقية !

ــ حاضر .

ــ متى ؟

ضحكت شمس .

ــنصل المطار ونكلم صاحبه لو وافق نشترى الطائرة ثم نستأجر حمارا يجرها الى البيت . موافق ؟

ــ موافق .

وحاولت بشرى ان تفهم ابنها ان جدته تداعبه . ولكنه قاطعها بنفاد صبر :

ــ ولكن جدتى قالت انها ستشترى لى طائرة وهى أطيب منك لأنك رفضت وهى وافقت .

وعندما وصلوا المطار تأكدوا من موعد الطائرتين ثم وقفوا بباب صالة الوصول حيث كان يقف شرطى ريفى فقير ومتعب . رأت شمس ذلك كما رأت

المستقبلين الواقفين والجالسين ايضا ـــ كان بعض النسوة الريفيات قد افترشن الارض وجلسن ينتظرن موزعات الاهتمام بين حركة القادمين وأطفالهن الذين اخذوا يركضون هنا وهناك . حشد من الأهالى : بهوات وافندية وفلاحون ومرضعات تحمل ثيابهن السوداء رائحة الحليب الذى فى أثدائهن ومتزينات تفوح منهن رائحة العطر الفرنسى ، رجال ونساء ، مُسنّون وصبايا وشباب ، راتهم شمس جميعا ينظرون الى ذلك المكان حيث يقف الشرطى والذى يخرج منه القادمون فرادى او فى مجموعات يدفعون امامهم بعربات حديدية عتيقة حمّلوها امتعتهم : حقائب غالية وجديدة مصنوعة من جلد مقوى لها خطوط هندسية واضحة ،حقائب عتيقة مربوطة بالحبال ، حقائب من جلد رخيص حُشيت حشوا بالملابس التى أعطتها شكلها وقوامها فبدت اقرب الى الزكائب ، حقائب تحمل ملصقات صغيرة وملونة وحقائب كُتب عليها بخطوط طفولية كبيرة أسماء اصحابها وعناوينهم فى قرى صعيد مصر او دلتاها ، أكياس نايلون لامعة وجميلة تبدو منها زجاجات الخمر والسجائر ، وأكياس قماشية كبيرة فصّلها اصحابها وتكشف عما بداخلها من ملابس وحاجيات .

.

صرخ طفل وقفز مندفعا باتجاه الشرطى . انخطف قلب شمس وقد بدا لها ان مكروها اصابه . ولكن الولد الآن كان قد القى بنفسه على شاب نحيل وطويل يلبس نظارة طبية ذات اطار ذهبى دقيق ويغطى فوديه الشيب . انحنى الشاب وحمل الصبى الذى احاط عنق ابيه بذراعيه وراح يقبله على وجنته وعنقه . ثم ظهرت امرأة صغيرة الحجم تسرع الخطو باتجاه الرجل والطفل ويداها ممدوتان فى اتجاههما . انحنى الشاب وقبل رأسها ونقل الولد الى ذراعه الايسر ولف ذراعه الأيمن حول كتف المرأة التى راحت تدفع بعربة الحقائب . رأت شمس وجه المرأة الذى كان يختلج بشيىء كالرعشة ونظرت الى بشرى فوجدتها هى ايضا تنظر .

وقال خالد :

ـــ ماما ، أريد أن اتبول .

أخذته امه وذهبت . وبقيت شمس فى مكانها تنتظر . مر عليها مجموعة كبيرة من الاجانب وكانوا جميعا بلا استثناء مُسنين لهم بشرة بيضاء مشربة بالحمرة تعلوها التجاعيد واحيانا النمش . وكانوا يعلقون على صدورهم بطاقات متشابهة ولا يحمل كل على العربة التى يدفعها سوى حقيبة واحدة ، أوحقيبتين صغيرتين .
« انهم سيّاح » قالت شمس لنفسها وتنهدت وهى تفكر « أغنياء الى حد انهم يسافرون من بلد الى بلد للفسحة ! »

ركضت صبية كانت تقف بجوار الشرطى وصاحت « وصلوا ، وصلوا يا أم محمد » . ظهرت امرأة تهرول بشكل يتنافى مع سنها وثقل جسمها .. امرأة كبيرة يميز وجهها البنى المتغضن وشم أخضر على ذقنها . اندفعت المرأة داخل الامتداد البشرى للممر الضيق لتستقبل شابا اسمر نحيلا ، ربما كان دون العشرين يجر عربة أمتعته . توقف واحتوته فى صدرها واجهشت ثم راحت تقبل كتفيه وكل كجزء من صدره طالته شفتاها . ساعتها مال الشاب على يدى المرأة ليقبلهما ولكنه أخذ ينتحب .

مسحت شمس دموعها وغالبت رغبة ملحة فى البكاء . ركض خالد باتجاه جدته وهو يرفع يده منتصرا بلوح من الشيكولاته .

ـــ قلت لماما انى اريد شيكولاته فقالت الشيكولاته ام الطائرة ؟ فأنا اخترت الشيكولاته فاشترت لى .

ابتسمت شمس وضحكت بشرى وسأل خالد محتجا :

ــ لماذا تضحكان ؟!

هتفت بشرى :

ــ هذه هى سلمى !

اندفعوا باتجاهها ، قبلتها بشرى اولا وضمتها شمس الى صدرها وهى تكرر « حمداً لله على السلامة ، ألف حمد لله على السلامة » ثم وهى تبتعد عنها قليلا وتبقى ممسكة بها » ولكنك ازددت نحافة يابنت... ألا يوجد فى النمسا أكل ؟! » وكان خالد يحتج انهن نسينه فانحنت عليه سلمى وحملته وهى تؤكد له ان لا أحد يمكن ان ينساه وانها احضرت له لعبة جديدة . وفكرت شمس وهى تسير مع « البنات » باتجاه المقهى ان وجه سلمى شاحب وعينيها منتفختان كأنها كانت تبكى .

وما ان جلسوا فى المقهى حتى اخرجت سلمى من كيس نايلون كانت تحمله قطارا لعبة اعطته للصغير الذى اقبل عليه وانهمك فى تشغيله .

كررت شمس فى قلق « ازددت نحافة ! » وسألت سلمى عن « ماما منيرة » وطه فقالت بشرى :

ــ خالتى منيرة ستصل اليوم من المنصورة . وطه افضل .

ــ مديحة ترسل له سلاما خاصا .. وطبعا تسلم عليكما جدا . وتقول لك

ياخالتى انها ستأتى العام القادم لتستقر هنا وستقيم معك .

أجابت شمس وهى تبتسم :

— عين العقل يابنتى وعقبالك .

تنهدت ثم واصلت :

— كل يوم اقول المرحوم عبد التواب كان على حق لما رفض فكرة سفر سلمى . والله ياابنتى ان السفر من عمل الشيطان غُلب وبعثرة وانت الله يسامحك فتحت الباب فارجعى واقفليه ومن يدرى يمكن رجوعك يكون فاتحة خير فيرجع على وامينة ويلتم شملنا .

ربتت سلمى على كتف شمس :

— عندك حق ياخالتى ، لكن الشيطان شاطر ! متى تصل طائرة على وامينة .

— بعد ساعة .

طلبن شايا لأنفسهن وعصيرا للصغير . وتسأل سلمى عن سيد وزوجته الجديدة وعن البيت والجيران ثم تعود وتسأل :

— ولكن انت ياخالتى كيف احوالك ؟

ثم تجيب كأن السؤال كان مطروحا عليها هى :

ـــ أراك كالقمر واكثر نشاطا وشبابا من آخر مرة رأيتك ، وحضنك كما هو اجمل حضن فى الدنيا .

وتضحك شمس وتقول انه « كلام » وتضحك بشرى وتقول انها توافق سلمى فى كل ماتقوله وتنظر الى خالد المنهمك فى اللعب وتؤكد لسلمى ان هديتها عبقرية ولولاها لما أمكن ان يتبادلن جملة واحدة مفيدة . وتقول لها سلمى انها تفتقدها كثيرا فتجيب بشرى بأنها تشعر بنفس الشيىء ثم بصوت خافت « وأكاد اعتب عليك احيانا لبعدك ! » وتقول شمس :

ـــ والنبى ياسلمى ترجعى ويكفى قلة عقل !

وتضحك سلمى وتقول :

ـــ وتقبلى ان اقيم معك ؟

وترفع شمس يدها كأنها سوف تضرب سلمى :

ـــ والله انك مجنونة وهل اقبل ان تقيمى فى مكان آخر .

ـــ وتجدى لى عملا ؟

ـــ العمل كثير !

ـــ وعريسا ؟

ـــ ليس أكثر من العرسان !

يضحكن . وتقول بشرى انه لابد من الذهاب الى صالة الوصول لأن على وامينة قد يصلان الآن فى اى وقت فيقمن ويتبعهن خالد محتجا لأنه يريد ان يلعب .

وقفن فى نفس المكان ينتظرن ورغم انشغالهن بالحديث الا ان شمس كانت لاترفع عينيها عن نهاية الممر الذى يخرج منه القادمون حتى هتفت انهم وصلوا واندفعت باتجاه الشرطى .

خرجت امينة اولا تمسك بالصغيرين مجدى وجميلة ، طفل فى كل يد . وكان على يتبعها ، يدفع بعربة الامتعة واحمد يسير بجواره . عانقتهم شمس ثم حملت جميلة وهى تقول لها انها لاتصدق انها كبرت الى هذا الحد فتطلّع اليها مجدى قائلا : « وانا ايضا كبرت اليس كذلك ؟ » ضحكت ووضعت جميلة على الأرض وحملته وهى تقول انه كبر جدا لدرجة انها لم تعد تستطيع حمله ! وبكت امينة تأثرا للقاء وضحك على وهو يقود الموكب الصاخب باتجاه موقف السيارات . استوقفوا سيارتى اجرة ، وضعوا فيهما الحقائب وركبت شمس مع على والاحفاد وركبت بشرى مع امينة وسلمى واتجهوا جميعا الى البيت .

كانت شمس وهى تروح وتغدو حاملة الاطباق من المطبخ . الى مائدة الطعام تشعر انه يوم عيد . كان الجميع قد وصلوا ، عاد الاولاد من السفر ، وجاءت منيرة من المنصورة ، وسيد وزوجته الجديدة من شقتهم . عيد حقيقى يؤكده حديث الاولاد الصاخب وركض الصغار وضجيجهم .. لو ان مديحة وطه كانا حاضرين ! سيعودان ، مؤكد ، ساعتها تتم الفرحة ويكتمل العيد .

دعتهم لتناول الغداء وهى تشعر بالرضا عن الطعام الذى صنعته .

« ملوخية لأجلك ياسلمى » ...« الكفتة التى تحبها ياعلى » ... « منيرة طبخت لك البامية بالطريقة التى تفضلينها » ... « كل ياسيد هذا الرقاق صنعته خصيصا لك » « الا زلت تحبين البط يا أمينة ؟ » . كانت تشدد فى دعوتهم الى الطعام فيضحك على ويقول « كأننا ضيوف ! » . وتهمس سلمى فى اذن بشرى « لاينقص هذه الوليمة سوى المشروب ، ترى هل تغضب امك لو اتيت بزجاجة ؟ » وتقول امينة ان الطعام مذاقه رائع ولكنها تحرص على قوامها فيعّلق على ساخرا « وهلى بقى هناك قوام ؟! » فتحدجه زوجته بنظرة عاتبة . ويقول سيد لعلى « عليك بالجرجير ياعلى فان فوائده لاتحصى ! » فتضحك زوجة سيد الجديدة ضحكة مجلجلة تدهش الحاضرين ولا يفوت منيرة اظهار امتعاضها . تذهب سلمى ثم تأتى وبيدها كوب بلاستيك لايظهر مابداخله وتعود الى مكانها بين بشرى وعلى وتهمس فى أذن بشرى وهى تشير للكوب : « هكذا لا أضايقها ولا أتضايق ! » فتضحك بشرى ويقول على « اشركونا » فتناوله سلمى الكوب فيرتشف منه ويفاجأ ثم يضحك . وتقول شمس « ارجعوا بقه ياأولاد ،ارجعوا ! » ويسأل سيد عن مديحة فتقول له سلمى « تحولت الى فيلسوفة وسياسية ولما ترجع ستجدونها مع طه .. فى السجن ! » تضحك امينة وتقول « تهور شباب غدا تهدأ وتعقل مثلنا » فيقول على « زوجوها امينة ، والنتائج مضمونة ! » فيضحك الجميع الا امينة التى تستنجد بشمس « هل يعجبك هذا ياخالتى ، هكذا طوال اليوم ! » وتقول بشرى تكفى هذه البعثرة .. متى ترجعون ؟ »فيجيب على بأنهم ادّخروا اللازم للشقة والاثاث ويبقى ادخار بعض المال لتأمين مصاريف الأولاد : « يعنى عامين او ثلاثة على الاكثر وتقول امينة : « الشقة التى استأجرناها واسعة بها مكان للجميع . انت ياماما تتركى المنصورة وتأتى للاقامة معنا وانت ايضا ياسلمى ومديحة ايضا « فيضحك على ويقول ان هذا ترتيب ممتاز وانه سيأتى للاقامة مع امه « كل واحد يقيم مع امه « فتزجره شمس وتقول انه وامينة يتصرفان كأنهما مولودان « فوق راس بعض » فيجيب على بخبث « هى فعلا فوق رأسى ! » وتعود شمس وتكرر « إرجعوا يا

أولاد لمّ الشمْل يرد الروح » ثم بعتاب لسلمى « انت ياسلمى فتحت باب السفر ارجعى وسدِّيه » وتقول امينة « مارأيكم ياجماعة كلنا نسافر ونقيم معا وعندما ندخر مايكفى نرجع » فتعلق بشرى دون ان تبتسم « ونصبح بنى هلال ويبقى لنا تغريبة ! » وتحتج شمس « ماهذا الفأل السيىء يا أولاد . وهل نحن فى مجاعة ؟! » وتهمس سلمى فى أذن على تسأله ان كان يريد ان تملأ له كأسا فيهمس فى اذنها بأنه يكون ممنونا لو فعلت . وتأتى جميلة راكضة وتقول ان خالد ضرب مجدى وان مجدى يبكى فتنادى بشرى عليهما فيأتيان فتسأل ابنها :

— لماذا ضربت مجدى ؟

— ضربته لأنه كذاب !

— لم أكذب .

يقول مجدى .

— لا كذاب وكذبت . قال : أبوك فى السجن . أناقلت : هو مسافر . هو قال : لأ فى السجن . أنا قلت : بابا مسافر مش حرامى . هو قال : لأ فى السجن فضربته لأنه كذّاب !

بكى مجدى وقال انه لم يكذب واندفعت امينة باتجاهه تريد ان تضربه وحالت شمس بينها وبين ذلك . وقالت بشرى لخالد :

— غلط انك تضربه .

وقالت شمس :

ــ مجدى فهم غلط ، يمكن هناك شخص آخر اسمه طه فى السجن . ومجدى تصور خطأ انه ابوك .

قال خالد بعناد :

ــ فهم غلط اذن هو غلطان !

قال على موجها كلامه لأولاده :

ــ انا وامكم لما كنا فى الجامعة امسكوا بنا ووضعونا فى السجن ليس لأننا كنا لصوصا او اشرارا ولكن لأننا كنا طيبين والحكومة كانت هى الشريرة . لو كان عمكم طه مسجونا فلابد انه هو الطيب والحكومة شريرة وايضا ...

قاطعه خالد :

ــ لكن بابا مسافر وليس فى السجن واسألوا ماما . جميلة ، تعالى نلعب . وأدار لهم ظهره وذهب .

مـفـــــــرد

☐ ☐ وقف خالد عند رأس سلمى النائمة وراح ينادى عليها ويلح لكى

تستيقظ وسلمى تقول له انها اجازة وانه مسموح ان ينام الناس كما يحلو لهم فى الاجازات ولكن الصغير راح يحتج بانه لم يعد فى البيت من ينام الا هى .

— نريد ان نذهب الى حديقة الحيوانات .

— اذهبوا ومع الف سلامة .

— ولكن خالى يقول انه لن يذهب بدونك .

وكانت سلمى قد استيقظت قبل ذلك وسألت عن بشرى فلما قالت لها شمس انها خرجت كعادتها منذ السابعة صباحا عادت للنوم مرة اخرى . ولكنها الآن مع الحاح الصغير لم يكن امامها سوى ان تقوم . غسلت وجهها وشربت الشاى وسألت عن موضوع حديقة الحيوان وعلقت ضاحكة ان حديقة واحدة تكفى . سأل الصغار «أى حديقة ؟ » قالت « انتم ! » ضحكوا فكررت ذلك واضافت انه فى وجود اربعة نسانيس لامعنى ابدا للذهاب الى حديقة الحيوان فضحكوا اكثر .

توقفوا اما باب الحديقة . ذهب على لشراء التذاكر وراحت هى تتأمل تمثال مختار وتفكر انه دائما جميل . أتى على بالتذاكر ثم توقف ليشترى « فول سودانى » وهو يكرر ضاحكا : « الفول للقرود وليس لكم ! » والصغار يضحكون ويقولون ان خالتهم سلمى قالت انهم قرود . رأوا بائع البالونات الملونة وطلبوا منها فاشترت لهم . حملوها وراحوا يركضون ويقفزون كحبات الذرة فى المقلاة . قالت منيرة وهى تضحك انها لم تدخل الحديقة منذ ثلاثين سنة فقالت شمس « وأنا ايضا » .

ساروا مع الاطفال يشاهدون الحيوانات ويضحكون لتعليقاتهم ويثرثرون الى ان قالت منيرة انها تعبت من المشى فقرروا ان يستريحوا بالجلوس فى جزيرة الشاى . ساعتها اتت الخاطرة الى رأس سلمى فاعتذرت منهم قائلة انها سوف تذهب الى مشوار قصير « هنا بالقرب من الجامعة ، ساعة واحدة وأعود » .

خرجت من الباب الخلفى الملاصق لباب كلية الهندسة ، سارت باتجاه الجامعة ولاحظت ان صف النخيل المزروع امام المدخل قد ازداد طولا كما لاحظت ان سعفه مغطى بقدر ملحوظ من الغبار .

استوقفت سيارة اجرة وقالت للسائق انها تريد ان تذهب الى ماوراء المزلقان .

— أين ؟

— حين تعبر المزلقان سوف أدلك .

لف السائق ثم دخل الى الشارع الفاصل بين الجامعة والمدينة الجامعية . كم مرة قطعت هذه الطريق بدراجتها ؟ كانت دائما مزدحمة ولكنها ازدادت ازدحاما والغبار اصبح مَعلمًا للمكان ، يرى بالعين المجردة . كانت السيارات تقف فى صف طويل يكاد لايتحرك . نظرت سلمى بقلق الى ساعتها . وأخيرا عبر السائق بها المزلقان وطلبت منه ان يتجه يمينا ولكنه قال ان ذلك غير ممكن لان الشارع مسدود . ثم رأت هى ذلك ، رأت الحفريات التى لم تعرف ان كانت جزءا من عملية هدم ام بناء ، والمواسير الضخمة المتروكة بعرض الشارع كما رأت الناس يسيرون بحذر فى المساحات الضيقة المتروكة لهم بين المواسير والحفر والاحجار الضخمة وكان الغبار المنبعث من الحفر ومرور القطار ودبيب الناس انفسهم يلف

كل شيىء .

دخل السائق فى شارع آخر مواز للشارع الذى اعتادت السير فيه بدراجتها وكان عامرا بالحركة والبشر وكلما توغل السائق فى المكان ايقنت سلمى انها غريبة عليه . كان على السيارة الآن ان تسير ببطء شديد وسط مرور بشرى مزدحم . أطفال عائدون من مدراسهم يلبسون مرايل الدمور ويحملون حقائبهم القماشية او الجلدية المهترئة ويخوضون فى ماء المجارى ، ونساء يتسوقن وحرفيون يعملون بصخب فى ورشهم الصغيرة ، وباعة جوالون ، وعربات كارو تجرها الحمير ، وجحش سائب .

قال السائق :

— الى اين بالضبط تريدين الذهاب ؟

كادت سلمى تقول له انها تقصد النخيل والاهرام فيما وراء الشارع ولكنها لم تجرؤ فقالت وقد تضرج وجهها بالحمرة :

— يبدو اننى قد اضعت طريقى . لو تكرمت اعدنى الى الجامعة !

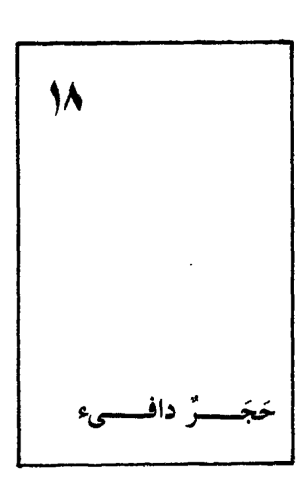
عن الزمان الجائر

« هل هى سنة الحياة أم حكم زمان جائر ؟ » تساءلت شمس وهى تفكر فى سفر الأولاد . يقولون « لن نطيل ، قريبا نعود » ولكنه كلام يضيع فى رمال الغربة الناعمة التى تغوص فيها أقدامهم سنة بعد سنة . يحزمون أمتعتهم ويستعدون

للسفر ومن يدرى متى يكتب لها الله اللقاء بهم . سرت رجفة فى بدن شمس وأحست بغصة فى حلقها وبشىء كالمرارة فى الفم . « هل هى سنة الحياة أن يكبر الأولاد فيذهبون وتبقى هى وحدها كشجرة عارية تجتر الوحشة وتنتظر أم أنه الزمان الصعب يحكم على الناس بالشقاء ؟ ومتى يأتى الفرج وكيف ؟ » عاشت عمرها تربى وتكبّر وتنتظر ، تحمل سلتها وتتحمل وتقول غدا يكبرون ويملأون عليها البيت بالفرح . مسحت دموعها بكفيها وقاومت رغبة فى الانتحاب . ولولا بشرى ، لولا وجود بشرى وخالد الصغير معها لقتلتها الوحشة . قلبها يوجعها على بشرى وتكاد تعتب على طه ، وتكاد تعتب على على وعلى سلمى ، ثم لاتعتب .

قبل شهرين ، قبل أن يأتى على وآمنة وسلمى لقضاء الأجازة معها كانت تجلس فى المساء أمام التليفزيون تنتظر عودة بشرى ، وكان خالد نائما . غلبها النعاس ثم انتبهت فجأة وقد بدا لها انه لم يمضى على موت زوجها سوى أيام أو شهور وكأن بشرى وعلى ينامان متجاورين فى الفراش . فى الماضى كان ذلك يتكرر كثيرا ، تهب فزعة من نومها وكأن مكروها أصابها فتجد انهما يغطان فى نوم عميق ولكنها فى تلك الليلة حين وجدت ان النائم هو خالد الصغير لم تفهم ومضت لحظات قبل ان تعى ان بشرى وعلى كبرا وتعلما وتوظفا وتزوجا وانجبا وأن النائم امامها هو حفيدها . فهل كان كابوسا أم رؤيا أم هو القلق أدى إلى اختلاط الأمور عليها ؟

هل صحيح أن الاولاد كقلتهم كما تقول منيرة ؟ لا لا انهم الشمس وبدونهم يذوى الانسان وتموت . رسالة منهم ترّد الروح ... ودخلة بشرى عليها ، ولو فى المساء متعبة ، نعمة كبيرة ... وعلى ليس سيد ، صحيح انه بعيد ولا تراه الا كل عدة سنوات ولكنها تحمد الله وتبوس الأرض أن ابنها هو على وليس سيد . انه زمان جائر ذلك الذى يعطى سيد بلا حدود ويبعثر الأولاد فى الغربة ويثقل على بشرى الى هذا الحد ويترك طه حبيسا مع المجرمين فى السجون .. زمان صعب وجائر .



١٨

حَجَرٌ دافىء

يشق القطار طريقه الى جنوب الوادى فى ضوء شمس ربيعية مستتبة وحارقة وعينا بشرى مثبتتان على الحقول التى تتراكض على الجانبين يدهشها التقسيم الهندسى الصارم والمتكرر للمساحات المزروعة . « اذن رحلوا ! » قالها طه كما قالتها هى من قبله .

بدا مدخل البيت فى ذلك الصباح كصالة مطار صغيرة اكتظت بحقائب المسافرين وأمتعتهم . وبكت امينة كعادتها ، وبكى الاطفال لبكاء امهم ولم يقل على شيئا وكذلك سلمى ولكنهما كانا واجمين شاحبى الوجه « لماذا كان سفرهم جارحا ايضا

وليس مؤلما فقط ككل مرة ؟ » كادت تسأل طه ولم تفعل .

حين زارته وجدته شديد النحول اصفر الوجه « هل انت مريض ؟ » سألت فأكد انه على مايرام وانه نشيط يقرأ ويكتب ويتأمل ويناقش . سألها عن خالد وضحك عندما حكت له عن المشادة التى حدثت بينه وبين مجدى . ثم طلب منها أن تذهب لزيارة أمه « أشعر اننى مقصر معها » . قالت له انها تحبه وتفتقده وانها تفخر به وتتعلم منه وودعته وهى تبتسم ولكنها كانت تعرف انها سوف تبكى ما ان تخرج الى الطريق ، وانها سوف تتوقف عند ذلك السبيل الذى تتوقف عنده كل مرة لتغسل وجهها عدة مرات حتى لاتلحظ امها انها بكت الى هذا الحد . قال لها طه «تحديداالأن الأمور على ماهى عليه فلن تبقى على حالها»فمن أين يأتى بهذه القوة وهل هى ثقة عمياء تلك التى تملؤه أم انه يرى ما لاترى ؟

حّدقت فى حقل قمح يمتد ويتصل كأن لاحدود له . بعدها جاء اللون البنى لحقل محروث . كان الفلاحون المنحنون على الأرض لبذرها يبدون من نافذة القطار المندفع كطيور بيضاء منثورة فى المدى الداكن . حركة القطار المسرعة تنقلها من الحنطى للبنى ومن البنى للأخضر الذى يتعدد ويمتد : « أخضر عتيق كلون ذلك الثوب الذى تملكه أمها ، وأخضر مخملى كالفول . وداكن كورق البصل ، وفاتح كورق الخس وزرعى كأوراق الذرة التى تكاد تستأثر بالمكان .

من محطة القطارات استقلت سيارة اجرة حملتها مع آخرين الى القرية . نزلت فى الساحة فلفح وجهها القيظ وكانت الشمس حارقة تغمر الأرض والبيوت بضوء حاد . وضعت بشرى يدها على حاجبها مستظلة بها لتستبين المكان الذى بدا لها راكدا فى هذا الوقت من الظهيرة « الفلاحون فى الحقول ، النساء فى البيوت ، والأطفال يلعبون فى الأزقة » فكرت وهى تقطع الساحة متجهة الى

البيت . ثم رأت صورة زيتية ملونة كبيرة لرئيس الجمهورية بلباسه العسكرى الموشى بالأوسمة والنياشين . كانت الصورة التى تتجاوز الحجم الطبيعى مرفوعة على قوائم خشبية عالية تجعل ظلها لايسقط على الساحة بل على أحد المبانى الواقعة فى أقصى الطرف المقابل . ومرت بشيخ نحيل جلس مستسلما للقيظ والذباب يضع امامه حاملا من جريد النخل يعرض عليه للبيع نسخا قليلة من الجريدة اليومية ، بجواره كان يجلس شحاذ كفيف . تجاوزتهما وسارت فى شارع متعرج يقود فى نهايته الى البيت . قبل ان تصل التقت بثلاث قرويات متسربلات بالأسود كانت كل منهن تمسك بطرفى عباءتها الواسعة من عند الفم فلا يظهر منها الا العينان فتبدو كهرم صغير أسود يتحرك .

دفعت الباب ودخلت ثم صفقت بيديها تعلن وصولها : « ياأهل البيت جاءكم ضيوف! »

أتت ام طه وهى تمسح يديها بذيل ثوبها وتقول « أهلا أهلا تفضلوا » ولم تكن قدتعرفت بعد على القادمين . ثم رأت بشرى فاحتضنتها وهى تكرر وتلح « هل طه بخير يابشرى ؟ » ضمتها ثانية الى صدرها وهى تقول ان ابنة نوارة الصغيرة التى تعلمت المشى منذ سنة عادت تحبو وانها قالت لنوارة « سيأتينا ضيوف » ثم استدركت « ولكنك لست ضيفة ، انت صاحبة البيت ! » ضحكت ام طه وبكت وتحدثت واستمعت وارسلت من يخبر محمود فى الحقل ان زوجة اخيه وصلت ومن يخبر « البنات » ان يأتين عندها على العشاء . وقامت وذبحت وطبخت وخبزت حتى اذا ماجاء المساء كان الأهل مجتمعين على العشاء كأنها وليمة معدة منذ اسابيع .

عاد محمود من الحقل وسليمان من مدرسته وجاءت نوارة مع اطفالها الخمسة ، وأطفال بهية التى لم تستطع الحضور لمرضها وجاءت بعض الجارات

ايضا وتجمعوا حولها يسألونها عن اخبار طه ويعتبون عليها انها لم تأت بخالد الصغير معها وينتقل بهم الحديث الى مواضيع اخرى ثم يعودون للسؤال عن طه وأخباره .

انتحت نوارة ببشرى جانبا ، قالت :

— أريدك ان تحدثى امى .. سعدية حصلت على شهادة القبول للاعدادى هذا العام وابوها مصر تقعد فى البيت وهى تبكى ليل نهار . وانا قلت له لو منعت البنت عن المدرسة سأترك لك البيت فضربنى وشتمنى وقال لى انى شرموطة واريد بنتى مثلى وان الباب مفتوح يفّوت جملا .

جئت لأمى قالت لى ارجعى بيت زوجك واسمعى كلامه . رجعت على عينى كأنى من غير أهل .

— هل تريدين ان اتحدث مع عبد الله ؟

— لا ، اريدك ان تحدثى امى ... عبد الله سيسمع لك تأدبا ولكن ما ان تذهبى حتى يضربنى ويقول لى يابنت الكلب تحرجيننى أمام الاغراب . امى هى التى يمكن ان تفتح معه الموضوع او اخى محمود ولو غضبت هنا فترة سيأتى ويطلب رجوعى ويقبل بدخول البنت المدرسة .

— سأكلمها ..

— الله يسعدك يابشرى . أنا اريد تعليم البنت لأنه تكفى خيبتنا ، ولا داعى نجددها فى البنات . انا لامعى شهادة ميلاد ولاشهادة تعليم ولما اموت قد لايكون لى حتى شهادة وفاة .. صحيح يابشرى هل يمكن ان يكون للانسان

شهادة وفاة ان لم يكن عنده شهادة ميلاد !

ربتت بشرى على كتف نواره ، قالت :

ـــ لاتحملى الهم .. سأكلم أمك فى الموضوع .

وفى الليل عندما ذهبوا ومدّت ام طه ساقيها امامها على الحصيرة مسندة ظهرها الى الحائط عادت تسأل بشرى :

ـــ بالله عليك يابشرى تطمئنينى على طه ..

سألتها عن التفاصيل وكانت تمسح دموعها وهى تسأل « ماذا يأكل ؟ » و « كيف يعيش ؟ » و « هل ان جئت الى القاهرة يمكن ان ازوره ؟ » .

ـــ انا يا بنتى لم اذهب الى « مصر » ابدا ، فماذا تفعل امرأة مثلى هناك .. ولكنى سأذهب . انا يابنتى لا أفهم ما الذى يجعل الحكومة تضع شابا يرّد الروح كطه فى السجن ، طه يده عفيفة ولسانه عفيف ويشهد ربى انه أطهر أولادى .

سألتها بشرى ان كان لم يحدث فى القرية ان اوذى شخص تحديدا لأنه عفيف . تنهدت الأم :

ـــ كثيرون يابنتى كثيرون ، لاتعّدى ولا تحصى لكن انا قلت انها « مصر » ام الدنيا فيهاميزان العدل والمحكمة والقاضى .

ـــ ميزانهم مائل يا أمى !

فبكت . أمسكت بشرى يدها قائلة :

ـــ طه يشرف يا أم طه وتسلم البطن التى حملت . ومالت على يدها لتلثمها ولكن ام طه سحبت يدها بسرعة وهى تقول عبر دموعها :

ـــ استغفر الله يابنتى ، استغفر الله !

ورغم تعبها الشديد لم يغمض لبشرى جفن طوال الليل . وكانت تعرف أن أم طه أيضا لاتستطيع النوم . كانت تتقلب كثيراوتتنهد بين حين وآخر قائلة « لا اله الا الله ! »

وفى الصباح عرفت ان حماتها لم تقض ليلتها فى ارق فقط بل ايضا فى البكاء . كان ذلك واضحا من لون عينيها وانتفاخ جفنيها .

سألتها وهما تحتسيان الشاى :

ـــ مارأيك ، هل تأتين معى غدا الى القاهرة ؟

ـــ كيف ؟ محمود مشغول بالحصاد ، وسليمان سيمتحن بعد اسبوعين ولو لم تكن بهية مريضة لطلبت منها ان تأتى لتقوم على خدمة اخويها . ان شاء الله الشهر القادم آتى مع محمود .

ـــ سأانتظرك .

ـــ سآتى .

قالتهاوهى تمسح دمعة بظهر كفها ..

ـــ كنت اتمنى ان اذهب الى « مصر » لسبب آخر .

ـــ تأتى لزيارته ، ثم تأتى مرة اخرى يوم خروجه بالسلامة .

فكرت بشرى انه من المناسب ان تفتح معها موضوع نوّارة لأن ذلك على الاقل يبعدها عن حالة التأثر الشديد . حدثتها فى الأمر ، قالت لها ان نوّارة محقة فى رغبتها فى تعليم ابنتها وان عليهم ان يساندوها فى ذلك .

قالت أم طه :

ـــ البنت نّوارة قوية وكثيرة الكلام !

ـــ ولكنها على حق ، وحرمان البنات من التعليم ظلم ، وضرب الرجل لامرأته ايضا ظلم .

ـــ يابنتى لو ان المرأة تغضب وترجع الى بيت ابيها فى كل مرة يقع ظلم عليها لانخربت كل البيوت منذ زمن ولما وجدت بيتا واحدا عامرا ومفتوحا .

ـــ ياأم طه ، هل الصحيح اذن ان نقابل الظلم بالسكوت ؟!

ـــ تسكت وتتحمل وتعيش !

قالتها بحزم وصرامة ونهائية ولم يكن من مجال لمواصلة الحديث .

فى المساء لبست ام طه عباءتها ونادت على الولد سليمان لكى يصحبها هى وبشرى لزيارة بهية .

لم يكن البيت بعيدا وعندما وصلوا دفعت ام طه الباب الخشبى الكبير الذى احدث صريرا ملحوظا . وما ان خطت بقدمها اليمنى الى باحة الدار حتى صفقت بيديها تصفيقتين معلنة عن قدومهم . الى يمينهم مباشرة كانت هناك جاموستان مربوطتان تجاوزوهما ثم دلفوا من باب مفتوح . قامت بهية التى كانت جالسة على احدى الأرائك وراحت ترحب ببشرى وتحتضنها وترحب بأمها وتؤكد انها خطوة عزيزة وانها الآن بخير .

كانت الحجرة فسيحة نسبيا بها ثلاث أرائك كبيرة بجوار احداهما طاولة خشبية صغيرة مكدسة بالكتب والكراريس المدرسية وفى مقابلها رأت بشرى طاولة أخرى أكبر تحمل جهاز تليفزيون ضخم مغطى بغطاء من قماش .

دخلت امرأتان متقاربتان فى العمر يعلو وجهاهما الابتسام . قالت ام طه وهى تسلم عليهما وتقبلهما انهما كريمة وست ابوها سلفتا بهية . سألتهما عن زوجيهما فأجابتا انهما بخير وقالت كريمة انه وصلها رسالة منذ عشرة ايام . وأوضحت بهية لبشرى ان عبد الرسول وعبد الحق هما اخوة زوجها عبد القوى وانهما يعملان الآن فى العراق .

ثم أتت صبية تحمل صينية من الصاج مزينة برسوم ذات الوان زاهية لورود بلدية عليها زجاجات الكوكاكولا . وقالت بهية بفخر ان الصبية هى سمية ابنتها وانها « مقرى فاتحتها » على ابن عمها . قالت كريمة وهى تضحك مشيرة بيدها

الى صدرها :

ــ ابنى انا !

واحمر وجه البنت فغادرت الغرفة . ثم جاء عبد العال الذى كانت بشرى قد رأته فى الليلة السابقة ، صبى فى الثانية عشرة . سلم على جدته وزوجة خاله وجلس وراء الطاولة المكّدسة بالكتب . وعلقت ام طه :

ــ عبد العال يشبه خاله طه . فى المدرسة الأول ويحب قراءة الكتب ومحترم بين الناس .

ضحكت امه وقالت :

ــ سبحان الله حتى فى حبه للملوخية كأخى طه !

أتى طفل صغير وسأل عن موعد المسلسل فقالت له بهية :

ــ بعد ربع ساعة ، العبوا فى الشارع ولما يأت المسلسل سأناديكم . اسمع قل لمحمد ان يذهب الى بيت خالتك نوارة ويقول لها ان امها وزوجة اخيها هنا .

ثم نادت بهية على سمّية وهمست فى اذنها . بعد قليل عادت البنت وبيدها الصينية مرة اخرى وعليها هذه المرة ابريق الشاى والاكواب ..

دخلت نوارة وفى ذيلها موكب من الاطفال ، لم يكونوا اولادها فقط بل اطفال الاخريات الذين انهوا لعبهم فى الشارع لكى يشاهدوا المسلسل . قدمت

سمّية الشاى ثم رفعت الغطاء القماشي عن التليفزيون وفتحته وجلست كالآخرين للمشاهدة . وكان الاطفال الآن قد تربعوا على الحصيرة وعيونهم معلقة بالشاشة . أدهش بشرى التشابه الكبير بين وجوههم كأن لهم جميعا نفس البشرة الخمرية والشعر المجعّد كصوف الخرفان والعيون اللوزية الدعجاء وبدوا لها متقاربين جدا فى السن ماعدا سعدية ابنة نوارة التى لايريد لها ابوها الاستمرار فى المدرسة وسمية «المقرى فاتحتها» وباستثناء عبد العال الذى ظل فى مكانه يقرأ وطفلة صغيرة جدا راحت تلعب بفردة حذاء قديم كانوا كلهم يحدّقون فى الشاشة امامهم ويتابعون فقرة الاعلانات التى تسبق المسلسل .

امرأة جميلة تقفز فى الهواء كأن جسدها لايخضع لجاذبية ارضية . يتمايل جذعها فى نعومة فيتطاير شعرها الأملس الطويل الاشقر . ثم صوت نسائى دافىء يُعلن : شامبو برادايز ، سحر وفتنة .

ويتبع ذلك مشهد آخر لشاب يقود قاربا بخاريا يطوى الامواج العالية فيتطاير الرذاذ ويهمس صوت ناعم : عطر الشباب .. عطر ... كانت الطفلة الصغيرة قد بدأت تبكى لأن احد الأولاد قرصها .

— من هو الذى قرصك ؟

سألت ست بوها .

فأشارت بيدها الى الصغير الذى يجلس بجوارها والذى علا صوته مقسما :

— ورب الكعبة هى التى قرصتنى .

واحتج باقى الاطفال طالبين منهما ان « ينكتما » لأن المسلسل بدأ وهم يريدون مشاهدته .

راحوا يتابعون البطلة الجميلة التى عادت من عملها فى سيارة حمراء ثم تحممت وتزينت ومرّ عليها صديقها فى سيارة اخرى زرقاء لتناول العشاء فى مطعم تعزف فيه الموسيقى فيرقص الناس على ضوء الشموع . أطبق على المكان صمت لايقطعه سوى حوار الممثلين وانفاس الاطفال . ولاحظت بشرى ان ام طه لم تكن تتابع التمثيلية بل كانت غارقة فى افكارها وان عبد العال ايضا ظل فى مكانه مستغرقا فى القراءة . قامت اليه ووقفت بجواره وهى تسأله :

ــ ماذا تقرأ ؟

« تأخرنا ! » قالت ام طه . وهى تسير مع بشرى ويسبقهما الولد سليمان بخطوات . ولم تجد بشرى شيئا تقوله فقد كانت تحدق فى البيوت العتيقة المتشابهة على جانبى الشارع والتى بدت فى الضوء الخافت كقلاع او معابد من زمن بعيد يستعصى عليها . الابواب موصدة ولا نوافذ سوى طاقات معلقة بأعلى الجدران . وكانوا يسيرون فى زقاق ضيق ومستقيم لاينحنى ولكنه ينحرف فجأة ليبدأ زقاق مستقيم آخر .

قالت أم طه :

ــ غدا اقول لأم خالد انك ذهبت لزيارتها ولم تجديها .

ــ ألا نستطيع زيارتها الآن ولو لدقائق ؟

ـــ ربما نامت .

ـــ وربما لم تنم بعد .

دخلوا فى الزقاق المؤدى الى البيت ولكنهم قبل ان يصلوا مالوا يمينا ثم دقت ام طه على باب كبير لم تلحظ بشرى انه باب الا عندما دقت حماتها عليه . سمعوا خطوات تقترب :

ـــ من ؟

ـــ افتحى يأم خالد ، أنا ام طه ومعى زوجة طه .

صرّ الباب الخشبى العتيق وانفتح كاشفا عن شكل مبهم لجسد صغير . احتضنت المرأة بشرى وهى تسألها ان كان طه قد خرج بالسلامة . دعتهم للدخول ولكن ام طه قالت ان الوقت تأخر وانهم ارسلوا لها بالأمس ولكنها لم تكن موجودة بالدار .

ـــ حمدية جاءها الطَّلْق وارسلوا فى طلب الداية ولم يجدوها فأرسلوا لى فذهبت .

ـــ وقامت بالسلامة .

ـــ الحمد لله .. وجابت عريس ! والله تتفضلوا .

ولكن ام طه كررت ان الوقت تأخر وان سليمان يريد ان ينام وانهم اوصوا

على سيارة اجرة لتحمل بشرى الى محطة القطارات ستأتى فى الرابعة صباحا . كان الضوء الخافت المنبعث من مصباح ما داخل الدار يلقى بصفرة باهتة تحيط بالمرأة الصغيرة الواقفة عند الباب يؤكد عمق الفراغ الذى وراءها . قالت بشرى لحماتها :

— ارجعى انت مع سليمان وسأبقى انا هنا مع ام خالد بعض الوقت ثم أجيىء .

حيتهما ام طه وهى تنبه على ام خالد ان ترشد بشرى الى طريق البيت التى لاتمر على الشارع .

خطت بشرى الى داخل البيت . واتت ام خالد بمصباح الكيروسين الى حجرة الجلوس ووضعته على حافة النافذة ثم ذهبت مرة اخرى واتت بوابور وابريق لصنع الشاى ثم ذهبت مرة ثالثة . وكانت طوال الوقت ترحب ببشرى وتكرر ان الدار نّورت . أتت ام خالد بقدر من الطحين وقدر من السمن وآنية نحاسية وهى تقول انها لن تصنع اى شيء ، فقط وبسرعة فطيرة بالسكر ما أن يغلى الماء للشاى حتى تكون عجنتها فتقليها فى السمن على النار . وضحكت بشرى وهى تضع الآنية جانبا وتقسم انها اكلت وشربت فى بيت بهية ولم يعد فى بطنها اى مكان للفطير .. وقالت ام خالد ان هذا لايصح . ولكن بشرى أصرت الا تقوم بصنع الفطيرة وقالت انها جاءت لتجلس معها وتراها وانها سوف تشرب معها الشاى وتذهب .

أوقدت ام خالد وابور الجاز ووضعت عليه ابريق الشاى الصاج الكحلى وراحت تسأل عن اخبار طه :

ـــ المرة القادمة حين تزوريه قولى له ام خالد طول عمرها عارفة انك غالى ولكنها لم تكن تعرف انه بعد « الغالى » لم يعد غالى سواك .

رفعت يديها فجأة وانطلقت فى دعاء حار « ربنا يحميك ياطه ويصونك وينصرك على أعاديك ، ربنا يوقف لك اولاد الحلال ويفتح فى وجهك الابواب ويكتب لك فى كل خطوة سلامة » . مسحت وجهها بكفيها ثم صبت الشاى فى الكوبين وهى تسأل بشرى وتلح لماذا لاتريد ان تأكل فطيرا من صنع يديها .

أطفأت الوابور وقالت وهى تقلب السكر فى الشاى انها قضت الليلة السابقة تشرف على ولادة حمدية الجارة .

لما وصلت كانت الرأس قد بانت . وربنا سهل وساعدتها وشرّف « العريس » ولكن المشكل ان الخلاص لم ينزل . نظفت الولد وربطت له سُرته وقطعت الحبل وانتظر الخلاص والخلاص لاينزل وانا اقول « يارب سترك » زوج حمدية كان قد ذهب ليأتى بأمها فى الجهة الأخرى من القرية ولم أستطع ان اتركها هكذا لكى اذهب وانادى على اى واحدة من الجارات . انتظرت وطال الانتظار وليس معى سوى حمدية المسكينة وربنا . قلت « يابنت اسحبيه وسلمى امرك لله » لفيت الحبل على يدى اليمين ووضعت يدى الشمال تحت سرّة البنّية واول ماحسيت بالطلقة صرت احرك يدى الشمال لفوق واشد الحبل لتحت بيدى اليمين . تخلص الطلقة انتظر . ترجع ارجع . اسحب الحبل لتحت واسند بيت الولد لفوق . تخلص اسكت ، تبدأ ابدأ . ويابشرى يابنتى حضرت ولادات كتيرة لكن هذه المرة كانت اصعبها . صرت ادعو واقول « يارب عاون ، يارب روح وفى ايدك تحييها ، يارب لاتكسر بخاطرى ، جبر الخواطر عليك » ويابشرى يابنتى كان يتهيألى انى سأبقى هكذا إلى مالانهاية وان حمدية ستسلم الروح بين يدى وافكر فى عيالها الاربعة النائمين فى الحجرة الملاصقة فيزرب العرق البارد فى ظهرى .

ولكن الخلاص فى النهاية نزل وبقيت احدِّق فيه واتحقق وكنت سعيدة كأنه الولد الذى امامى .

زفرت المرأة دون ان تبتسم ، قالت :

ــ الحمد لله !

كانت أم خالد تمسك بكوب الشاى بين يديها البُنيتين المعروقتين ولاحظت بشرى انها تلبس دبلة فضية فى بنصرها الأيسر . سألتها :

ــ وماذا سميتم الولد ؟

لم تنتبه ام خالد للسؤال . كانت تنظر امامها وتقول كأنما لنفسها « روح بأمره يأخذها وبأمره يحييها » .

قامت بشرى قائلة انه حان وقت الذهاب فأمسكت بها ام خالد تدعوها لقضاء الليلة معها وهى تؤكد انها ستوقظها فى الوقت المناسب لأنها تستيقظ قبل صلاة الفجر .

ــ المرة القادمة سأنزل عندك واقضى معك بدل الليلة ليلتين .

ــ الله يكرمك يابنتى ويسهلها لك ويرجع لك رجلك سالما غانما . انتظرى لحظة .

تركت ام خالد الغرفة . ووقفت بشرى تنتظر . فكرت ان ام خالد تقضى

الليالى الطويلة وحدها فى هذه الدار حيث ضوء المصباح الخافت يؤكد الوحشة بدلا من ان يبددها . حاولت ان تتذكر ان كان المكان يبدو مختلفا فى الصباح وكانت قد جاءته مع طه من قبل.دارت بعينيها تبحث فى الحجرة عن الكنبة التى كانت قد جلست عليها ، رأت صورة خالد المعلقة على الجدار . لم تلحظها لأنها كانت تجلس الآن فى مواجهة ام خالد وظهرها للجدار الذى يحمل الصورة . لماذا تبدو مختلفة الآن ؟ هل هى العتمة والضوء الشاحب ؟ كانت تألف وجه خالد فى الصورة المعلقة هنا وفى بيتها فى القاهرة ، شاب فى مقتبل العمر له وجه مستدير باسم ومقبل فلماذا يبدو الآن مختلفا كأنه كهل حزين . سرت بجسدها قشعريرة وداهمها شيىء كالخوف .

عادت ام خالد وقد حملت سلة من الخوص وقالت « الموجود . انهما رغفان وطه يحب خبز بلدنا ، الموجود » كررت . أحاطت بشرى المرأة النحيلة بذراعيها وضمتها واخذت منها السلة . ثم قادتها ام خالد التى كانت تحمل مصباح الكيروسين فى يدها عبر الباحة الخاوية ثم عبر ممر ضيق فباحة اخرى فممر ثان ثم دفعت بابا ووجدت بشرى نفسها فى بيت حماتها . قالت باندهاش : « لم اكن اعرف ان البيتين متصلان ! » قالت ام خالد : « تصبحين على خير » وتركتها وعادت .

صحبها محمود الى محطة القطارات . لوحت لأم طه التى بدت وهى تقف فى مدخل البيت فى هذه الساعة من السحر كتلة داكنة ومبهمة التفاصيل . انطلقت السيارة العتيقة تقطع صمت القرية وعتمتها بصوت محركها وضوء مصابيحها الأمامية .

عندما وصلوا الى الساحة توقف السائق ليأخذ ثلاثة رجال كانوا ينتظرون ، ركبوا فى الجزء الخلفى المسقوف بالقماش ثم واصلت السيارة طريقها .

كان الجبل الاجرد الآن قد اصبح على يسارهم ، امتداد اصم يحّد الطريق ويواكبه ، كان يمكن فى هذا الوقت البنفسجى الداكن رؤية ذلك الا انه لم يكن بالامكان رؤية الوادى المزروع على يمينهم .

وقفت مع محمود تنتظر القطار على رصيف المحطة . ولما رأته قادما مدت يدها وودعته واوصته بأمه واوصاها هو بالصغير وطلب منها ان تبلغ سلامه الى طه . حاذى القطار الرصيف ثم توقف وانفتحت ابوابه محدثة صريرا مميزا . حملت السلة فى يدها وركبت .

لم تكن قد نامت فى الساعات القليلة الفاصلة بين عودتها من عند ام خالد ومغادرتها للبيت . استعصى النوم عليها تماما . ولانها لم تكن قد نامت ايضا فى الليلتين السابقتين ، ليلة استعدادها للسفر الى القرية وليلتها الاولى فيها فقد كانت تشعر بالانهاك الشديد . « سأحاول النوم ، ولو ساعتين وعندما اصحو اشرب كوبا من الشاى فانتبه » وكانت تفكر ان عليها ان تذهب مباشرة بعد وصولها الى المدرسة للقيام بعملها . ولكنها لم تستطع ان تنام ام انها اغفت وصحت واغفت فبدا لها ان نومها المتقطع أرق ؟ كانت حركة القطار المسرع وصوته العالى الرتيب يصيبها بشيىء كالخُدر وكأنما هى بين النوم والصحو . لابد اننى نمت ، ولو لدقائق . كانت قد رأت حلما .. أكان حلما ام احلاما ام شذرات من شيىء كالكابوس ؟

« كانت ام خالد تبكى وكانت ام طه تؤكد لها انها فهمت خطأ وان الولد بخير وان امه قامت بالسلامة » ام ان الذى رأته كان عكس ذلك والتى تبكى كانت ام طه ؟ .

فتحت بشرى عينيها فرأت الحقول تتراكض فى ضوء لشمس ساطعة

وقوية . أغلقت عينيها ثانية .

« احتقن وجه المرأة وانضغط ، اختفت العينان فى تجاعيد الوجه المتقلص ،تشنّجت اصابع القدمين وانغرست اكثر فى الارض وبحثت اليدان عن شيىء تتشبثان به ، لم تجدا ، فانغلقتا على نفسيهما متكورتين فى توتر متخشب واتسعت فجوة الفم وهى تطلق صرخات حادة ومتلاحقة » .

شهقت بشرى وهى تهز رأسها وفتحت عينيها . وجدت يديها منقبضتين فى تشنج ، فتحتهما ، وجدت أن أظافرها قد تركت علامات واضحة على كفيها . « انه حلم ، ، انه حلم » كررت وقامت الى دورة المياه وغسلت وجهها عدة مرات « اننى مرهقة ، هذا كل مافى الأمر » .

دخلت الى مقهى القطار وجلست على المقعد العالى واسندت مرفقيها على العارضة الخشبية وطلبت كوب شاى ، شربته ثم طلبت كوبا آخر . نظرت الى ساعتها ووجدت ان القطار سوف يصل الى القاهرة بعد ساعة واحدة .

وفى المحطة شقت طريقها الى باب الخروج وكان صوت أجش يعلن فى مكبر للصوت عن وصول قطار الصعيد . خرجت الى الميدان المزدحم بحركة تموج فى كل اتجاه ، من وإلى شبرا والقللى والتحرير والعتبة والضاهر وغمرة والعباسية .

وقفت تنتظر قدوم الاوتوبيس وهى تتصبب عرقا « سيكون اليوم شديد الحرارة » فكرت فى ذلك وعيناها تتابعان مرور البشر فى الميدان الواسع الذى يتوسطه تمثال الفرعون القديم . جاء الاتوبيس فانحشرت وسط ركابه وبعد اربع محطات نزلت . اتجهت الى المدرسة ، ودخلتها ، وضعت السلة فى حجرة المدرسات ، مرت بدورة المياه ، تبولت وغسلت وجهها ويديها ثم عادت الى

الحجرة وجلست تنتظر دق الجرس ، دخلت الفصل ، درست ، جمعت الكراسات . بعدها دخلت فصلا آخر والقت على التلميذات درسا مختلفا وجمعت كراسات اخرى . وضعتها جميعا فى دولاب خشبى عتيق بحجرة المدرسات ثم حملت سلتها وغادرت المدرسة .

مرة ثانية انحشرت فى الاوتوبيس ثم عادت فنزلت منه . دخلت الى مدرسة « محو الامية للكبار » توجهت الى مكتب الوكيلة . تبادلت معها كلمات عابرة عن رحلتها الى الصعيد وتركت السلة عندها . دخلت الفصل ، درست حصتين متتاليتين للحاضرات اللائى كانت تتفاوت اعمارهن من الخامسة عشرة للستين . شرحت وفصّلت وكررت وانصتت ثم عادت تتكلم . وعندما عادت الى مكتب الوكيلة التى كانت امرأة ممتلئة تلبس دائما ثوبا اسود كأنها فى حداد ولم يكن لدى بشرى اى علم انها تلبس الحداد على احد بالذات . سألتها ان كانت تقبل مشاركتها فى الاكل . وافقت . طلبت بشرى من سيدة عاملة النظافة الوحيدة بالمدرسة ان تشترى ساندويتشات فول وتصنع لهما شايا . ولما اتت المرأة بالمطلوب اكلتا وشربتا وبقيت بشرى جالسة لنصف ساعة اخرى تسمع ثرثرة الوكيلة دون ان تستمع تماما لما تقوله . ثم قامت وسارت حتى ميدان الجيزة الذى لم يكن يبعد سوى خطوات قليلة عن المدرسة . ووقفت تنتظر الاوتوبيس . جاء وركبت .كانت الساعة الرابعة والنصف وحركة المرور أهدأ . وجدت لنفسها مقعدا ، جلست وبعد محطتين قامت ونزلت وسارت باتجاه باب الجامعة .

عند الباب سألها شرطى الحراسة ورجل الامن الآخر فى الثياب المدنية ان تبرز بطاقتها الجامعية فأبرزتها . سألاها عن السلة فأوضحت انها اتت من السفر هذا اليوم نفسه وان بالسلة ارغفة . قال رجل الامن انه لابد ان يتأكد من الامر بنفسه . رفع الشرطى الورقة التى تغطى السلة وراح رجل الامن يغوص بأصابعه فيها .

استردت بشرى سلتها واتجهت يمينا الى ملحق كلية الآداب . دخلت وصعدت الى الطابق الثانى حيث قسم التاريخ . مرت بعم سالم ساعى القسم واودعت عنده السلة ودخلت الى المحاضرة وجلست تنتظر . لم يأت المحاضر الا بعد ساعة من موعده . وعندما أتى حاضر وذهب . أخذت سلتها من عم سالم وغادرت المبنى . دقت ساعة الجامعة دقتين متعاقبتين . نظرت بشرى الى ساعتها ، كانت السادسة والنصف .

خرجت من البوابة الحديدية تطلعت إلى النصب التذكارى لشهداء الجامعة . « هل هذه شعلة التى تعلوه ؟ »تساءلت وهى تفكر انه يمزج بين شكل المسلة وزهرةاللوتس ولم تكن قد لاحظت ذلك أبدا . عبرت وواصلت السير . كانت اشجار الاكاسيا امبروزا المزهرة والممتدة حتى نهاية الشارع تلقى بظلالها على الطريق . هبت نسمة هواء ففكرت ان حرارة النهار آخذة فى الانحسار وان يومها كان طويلا وانها منهكة . راحت تتابع ازهار الاكاسيا الحمراء والبنفسجية التى تتداخل مع الاوراق الخضراء المُنمنمة وعندما وصلت الى التقاطع خالجتها رغبة فى الجلوس : « فى هذا المكان »ولم يكن هناك سوى السور الحجرى للمشتل المتاخم لحديقة الاورمان فجلست عليه . كان التمثال الآن امامها جانبيا ، الجزءالايمن من المرأة ، ثوبها الحجرى والذراع المرفوعة فى زاوية قائمة حتى تلامس اليد غطاء الرأس وأبوالهول ترى رأسه الآدمى من موقعها لكن لاترى الا جزءا من جسده .

أغمضت عينيها واسندت ظهرها ورأسها الى القضبان الحديدية التى تعلو وتكمل سور المشتل ، فتحت عينيها وراحت تتأمل المرأة الحجرية الناهضة . قامت من مكانها وحملت سلتها وعبرت . تجاوزت السياج الصغير وخلعت حذاءها فأحست بالعشب الندى على قدميها ، وضعت يدها على قاعدة التمثال فأدهشها دفء الحجارة . تمنت لو ان باستطاعتها ان تتجاوز القاعدة وتمر بيدها على جسد

المرأة : الرأس العالى وغطاؤه القديم والرقبة والثدى والبطن وثنيات الثوب والذراع المرفوعة الى الرأس والاخرى التى تسكن الى رأس ابى الهول . تملكتها الرغبة فى ذلك كأنما هى حاجة تُلحّ ولكن قامتها لم تكن تصل .

جلست واسندت ظهرها الى قاعدة التمثال واغمضت عينيها . سمعتها تدق ، اربع دقات متصلة تعلن اكتمال الساعة ثم ثمانى دقات تفصل بين كل منها والاخرى لحظة صمت خاطفة . بعد ذلك لم تسمع شيئا الا ذلك الصوت الذى جاء يوقظها بفظاظة :

— قومى يا أمرأة .

رفعت اليه عينيها تتساءل وراح هو يسألها عن بطاقتها الشخصية وعن السلة التى بجوارها وعن سبب نومها فى هذا المكان . أوضحت انها كانت فى طريقها الى البيت وانها أرادت ان ترى التمثال عن قرب وانها اغفت من شدة التعب . أعطته بطاقتها ليتأكد . راح يحدق فيها وهو يقول :

— لم اكن اعرف ان المومسات وصلن الى طريق الجامعة .

— أنت وقح !

— أنت تتعدين على السلطة .

— أنت الذى تتعدى على بهذا الكلام .

كانت بشرى الآن قد قامت ووقفت فى مواجهة الرجل .

ـ بنا اذن الى القسم .

ـ ليس من حقك .

ـ من حقى ان اقبض عليك للتحرى ، أنا رجل أمن !

قادها الى قسم الشرطة وعندما دخلا الى الضابط الذى كان يجلس وراء مكتبه فى قاعة فسيحة قالت له عما ماحدث معها فابتسم ابتسامة باردة وقال انه كان عليها ان تبعد نفسها عن مواطن الشبهات فما الذى يجعلها تنام فى الطريق العام تحت تمثال نهضة مصر .

ـ قلت انى كنت متعبة وفى طريقى من الجامعة الى البيت جلست لاستريح قليلا فغفوت .

كان صوتها الآن حادا . سألها بغلظة :

ـ ماهذه السلة ؟

ـ بها خبز .

ـ خبز ؟

ـ نعم .

ـ دعينى انظر .

رفعت غطاء السلة كاشفة عما فيها من ارغفة ثم امسكت واحدا منها ورفعته فى وجه الضابط .

ـــ هل هذا خبز ؟

ـــ نعم .

ـــ انه منتفخ .. ومكور بشكل غريب ..

ـــ ولكن هذا هو الخبز الشمسى .

ـــ ياسلام !

ـــ ان كنت تجهل هذا فهى مشكلتك .

ـــ الزمى حدودك والا ستندمين .

قال ذلك ثم نادى بصوت صارم واجش :

ـــ ياعبد الله .

دخل عبد الله مهرولا ، دق قدميه ورفع يده اليمنى بالتحية وقال بسرعة تتآكل معها مخارج الحروف :

ـــ نعم يا أفندم .

ــ ماهذا ؟

سأله الضابط مشيرا الى الرغيف .

ــ عيش يا أفندم .

ــ هل أنت متأكد ؟

ــ متأكد ياأفندم .

ــ خذ هذه السلة وقف هناك .

حمل عبد الله السلة الى حيث اشار الضابط ، فى الطرف الاقصى من القاعة المترامية .

ــ ضع السلة على الارض وخذ رغيفا واقطعه .

ــ أقطعه ؟

سأل عبد الله

ــ إقطعه !

أكد الضابط .

مد الشرطى يده الى رغيف الخبز بشيىء من وجل وقطعه نصفين .

ـ ارميه .

ـ نعم يا أفندم ؟

ـ ارميه يابهيم !

ارتبك عبد الله ورمشت عيناه مرات متعاقبة ثم مال بجذعه ووضع شقتى الرغيف ببطء على الارض .

ـ التالى .

ـ نعم يا أفندم ؟

ـ يابهيم الرغيف التالى . حمار لاتفهم ؟! هذه الأرغفة يمكن ان يكون بداخلها شيىء ، متفجرات ، مخدرات .. منشورات .. أى شيىء ممنوع .

رمشت عينا عبد الله اكثر ولكنه مد يده مرة ثانية وثالثة ورابعة ، يمسك بالرغيف ويكسره ويرفع به كلتا يديه امام عينى الضابط الجالس بعيدا وراء مكتبه فى الطرف المقابل ثم ينحنى ويضعه على الارض . وعندما انتهى كانت الارغفة قد اصبحت مكومة بجواره .

ـ انصرف !

صرخ الضابط . دق عبد الله قدميه على الارض ورفع يده بالتحية متمتما « حاضر يا أفندم » وذهب . قال الضابط :

— واجب الشرطة حماية الامن ونحن لانلعب . لم نأت اليك فى دارك . انت التى عرضت نفسك لهذا الموقف . لاتوجد امرأة محترمة وعاقلة تنام على العشب ليلا وتتحجج بانها كانت تتأمل تمثال نهضة مصر فأغفت . هذا سلوك شاذ ، كونى اكثر حرصا فى المستقبل .

لملمت بشرى الخبز المكسر من الارض واعادته الى السلة وغادرت القسم . سارت حتى وصلت الى كوبرى الجامعة وبدأت تعبر .

فى منتصف الطريق راح الضيق المكتوم بداخلها يفيض دموعا فتوقفت . أسندت مرفقيها على السور الحديدى للجسر . نظرت الى يمينها فرأت مجرى النيل واسعا ولامعا يعكس اضواء كثيرة ورأت كوبرى عباس قريبا فكرت فى رحلة النهر « من هذا الجنوب يأتى ، عبر المنحنيات والسدود » نظرت الى يسارها فرأته مندفعا فى طريقه الى البحر دفاقا ومهيبا .

واصلت الطريق !!!

مايو ١٩٨٥

صدر للمؤلفة

١ ــ الطريق الى الخيمة الأخرى .. دراسة فى أعمال غسان كنفانى ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٧ .

٢ ــ التابع ينهض .. الرواية فى غرب افريقيا ، دار ابن رشد ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ ــ الرحلة .. أيام طالبة مصرية فى امريكا ، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٣ .

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٥٦١٩ / ٨٥
الترقيم الدولى ٧ ــ ٠١٨ ــ ٤٤٢ ــ ٩٧٧ ISBN

International Press
الانترناشونال برس
٥ شارع جمال الشاعد ــ مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩

« لم يكن ضوء الصباح قد انتشر تماما بعد . وأنا رأيت رجلا يركب دراجته ويحمل على جانبها قسطين كبيرين من أقساط الحليب . رأيت بائع الحليب ينزل من على دراجته ويلتقط ورقة من الأوراق التى نثرناها ويتطلع فيها ثم يتطلع الينا بتساؤل . رأى زميل مارأيت . فقال : (اكتبوا عن اعتقالنا) فصرنا نكتب : (اليوم تم اعتقال ١٥٠٠ طالب وطالبة من داخل جامعة القاهرة) أخذنا نكتب على قصاصات الورق وننثرها فى الطريق حتى لم يعد معنا ورقا » .

دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــرة

